المنهجية النقدية بين التطرّف والاعتدال

النيلي ومناوئوه نموذجاً

مكتبة مؤمن قريش

مختار الأسدي

دار ومكتبة البصائر
مكتبة العين

المنهجية النقدية
بين التطرّف والاعتدال
النيلي ومناوئوه نموذجاً

المنهجية النقدية بين التطرّف والاعتدال النبلي ومناوئوه نموذجاً

الطبعة الأولى
٢٠١٥م- ١٤٣٦هـ

جميع حقوق النشر محفوظة ومسجلة للناشر ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة طبع أو ترجمة أو نسخ الكتاب أو أي جزء منه إلا بترخيص خطي من الناشر أو المؤلف تحت طائلة الشرع والقانون.

مكتبة العين
بغداد -شارع المتنبي
00964770072881O

المنهجية النقدية

بين التطرّف والاعتدال

النيلي ومناوئوه نموذجاً

مختار الأسدي

مكتبة العين
بغداد -المتنبي

مقدّمة الناشر

تأتي قراءة الباحث والناقد الأستاذ مختار الأسدي لمنهجية المفكّر المبدع عالِم سبيط النيلي ومناوئيه، أطروحة جديدة في النقد البنّاء الذي يدخل إلى عقل الناقد ويناقش أفكاره سطراً سطراً وكلمة كلمة بعيداً عن الانحياز المضلّ والأحكام المسبقة التي يندر أن ينجو منها كاتب أو ناقد هذه الأيام.

وأقول بعيداً عن الانحياز والأحكام المسبقة لأنّ قراءته جاءت جولة ميدانية داخل النصوص، حاكَمَ خلالها كل أشكال التطرّف والتشنّج التي استُدرج إليها النيلي ومناوئوه، فأبعدهم عن الموضوعية والاعتدال، وأغرقهم في دائرة الجدل والانفعال التي تنأى بالناقد بعيداً عن الحكْم العلمي، والنقد المنصف، فيجد نفسه محشوراً في الكثير من الأحيان في خانة الخطيب التعبوي الغاضب بدل أن يضع نفسه في خانة الموجّه الفكري الحكيم.

نعم، لم يبخل الأستاذ الأسدي بالإشادة بإبداع السيد النيلي والتفاتاته القرآنية الخلاقة التي لم يلتفت إليها أحد قبله، ولكنّ ذلك لم يمنعْه من توجيه العتاب الأخوي له، متمنيّاً عليه وعلى

أمثاله أن يبقوا في دوائر الإبداع الفكري والثقافي، وألاّ يُجرّوا إلى دوائر الغضب المذهبي والانديا‌ح الأيديولوجي.

وكما إنه أشاد ببعض ما كتبه مناوئو النيلي في نقدهم له، ولكنه لم يفُته أن يسجّل عليهم انفعالاتهم ضد الرجل وتحاملُهم عليه واتّهامهم له بشكل غير منصف أبعدهم عن المنهجية النقدية الهادفة التي أراد الأسدي تجذيرها والتأصيل لها في هذا البحث المقتضب الرصين.

الشيء الأهمّ الذي جاء به الناقد في أطروحته هذه هو مناقشة النصوص والنصوص وحدها بعيداً عما تمحّله كتّابها وما ضمروه في تفسيرها، للنَيل من خصومهم والحكم على نواياهم بدل أفكارهم. فجاءت هذه الأطروحة جديدة فعلاً في عالَم النقد، إذْ إنها لم تُداهن، ولم تُساوم، ولم تتحامَل، واكتفى صاحبها بإيراد النصوص ومناقشتها بعيداً عن العدائية المسبقة أو الانبهار المسبق، أو الحُكم المسبق، الذي وقع في منزلقه الآخرون مع الأسف الشديد.

مقدمة الكاتب

إن أول كلمة نزلت من السماء إلى أهل الأرض هي كلمة (إقرأ). وإن أول قسَم أقسمت به السماء هو ﴿ ن. وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾.

كما إن أول تأمّل عميق لي في دلالة (إقرأ) هذه وحرف (النون) هذا جاء بعد قراءتي لكتاب (اللغة الموحدة) للكاتب والمفكر العراقي الراحل عالم سبيط النيلي.

نعم، قرأت جميع كتب الرجل المنشورة والمخطوطة، بل قرأتُ كل ما كُتب حوله وحول كتُبه من مدح وقدح، أو ذمّ وثناء، من الغلاف إلى الغلاف.

الأمران العجيبان اللذان استوقفاني في كل هذه الرحلة الطويلة هما:

1. منهجية الشخصية العراقية الاقتحامية التي تمظهرت بكل تجلياتها الحادة والمتطرفة في جرأة الكاتب الفريدة وتحدّيه للكثير من الثوابت التي ألفها المسلمون وعاشوا لها أو اعتاشوا عليها على امتداد قرون. الأمر الذي كان يهزّني

أحياناً هزاً عنيفاً لا أستطيع مقاومته أو عدم الاكتراث به. ولكني في الوقت نفسه لا أستطيع ردّه فيما ردّ به على غيره من العلماء والمفسرين والمؤرخين والفلاسفة ممن لم يتوفّر على أحد منهم نقداً وذمّاً لا من الأولين ولا من الآخرين حتى وصل به الأمر إلى خليفتي رسول الله الأول والثاني وقراءته للنصوص الثابتة التي جاءت حولهما بحيث لم يُبق لهما جلداً أو عظماً، وفي تأويلات واستنتاجات وتحليلات لم يأت بها أحد مثله لا من الأولين ولا من الآخرين أيضاً – كما سنقرأ –.

2. منهجية الشخصية العراقية في الرفض أو القبول مجسدة هي الأخرى في ما كُتب عنه مدحاً أو ذماً، فهناك من يدافع عنه دفاعاً مستميتاً وهو لم يفهم نظريته أصلاً – كما لم أفهمها أنا أيضاً بالكامل – وخاصة في ما أتى به في (اللغة الموحدة) حول القصدية في التعاقب الصوتي والحل القصدي. ومنهم من سلخ جلد الرجل عن عظمه، بل هرسهما معاً نقداً وتحاملاً وتجريحاً.

كنتُ أرى أحياناً أن الرجل يتحدّث في وادٍ ونقّاده يتحدثون في وادٍ آخر، وهذا ما سنأتي عليه بشواهد ومصاديق سريعة للاستدلال ليس أكثر، ومن نصوص كتبه، ومما كُتب عنه نصاً أيضاً.

لا نريد بذلك أن نقف متفرجين بين المعسكرين المتحاربين، ولا نريد أن نزيد في الطنبور نغمة أو نرمي سهماً على هؤلاء، وآخر على أولئك كما يفعل الانتهازيون والوصوليون والكثير من السياسيين المحترفين، ولكننا نقف فعلاً حائرين بين ما كتبه وكُتب عنه فنقف عاجزين تماماً عن الوصول إلى الحقيقة التي جاهد في الوصول إليها حتى نكاد ننسى كلمة (إقرأ) المقدسة المذكورة بل يكاد بعضنا يكفر بالقلم والقراءة والتأريخ رغم إجلالنا لـــ (نون والقلم وما يسطرون)، وبذلك يتحمل المؤرخون وزراً عظيماً لا ندري كيف ستعاقبهم السماء عليه لاسيما، إذا كانوا متعمّدين في تضليل الناس وتحريف عقائدهم وتزييف تأريخهم.

وبما أننا لا نريد التعليق على ما كتبه الرجل، فكل ما كتبه موجود في كتبه، وهو الآن في ذمّة الخلود، وبما أننا لا نريد التحامل على نقاده وخصومه لأن ما كتبوه هو الآخر موجود في كتبهم، فإننا نجد أنفسنا مضطرين إلى محاكمة بعض نصوص الطرفين لتجلية المنهجية والمنهجية المضادة فقط في ما قلناه عن الشخصية العراقية في حدّتها وجرأتها واقتحاميتها من جهة، وفي انفعالها وغضبها الكافر من جهة أخرى.

وقبل الولوج في عالَم عالِم سبيط النيلي واجتهاداته الصارخة، أودّ القول إن من يريد أن يعرف عالَم هذا الرجل

عليه أن يقرأ كتبه ويتأمل فيها. لا أن يطالعها أو يتصفّحها كما كتب بعض نقّاده – مع الأسف –.

أقول: إني لم أشأ مناقشة أو دراسة أو عرض أفكار الرجل أو مناقشة نقاده وتأييدهم أو الردّ عليهم لأن ذلك طويل مدّته، عريض نقاشه، واسع أمده، ولكني أخذتُ نتفة من هنا ونتفة من هناك لعلّي أفتح كوّة صغيرة لقراءةٍ منهجيةٍ علميةٍ جديدة في النقد نبتعد فيها عن الحدّة والتطرّف والانفعال، ونسعى من خلالها إلى التأنّي والتأمل في كل ما يُكتب أو يُقال في هذا الموضوع أو ذاك، قدحاً أو مدحاً، ذماً أو ثناءً – كما قلتُ –. بلا غضب كافر أو تكفير لئيم.

مختار الأسدي

1435 هـــ – 2013 م

في صلب المنهج اللفظي للنيلي

بعد هذه المقدمة السريعة، أدخل إلى عالَم عالِم سبيط، أي إلى صُلب أفكاره ونظرياته التي طرحها في عموم كتُبه، وأبدأ بكتابه **(النظام القرآني – مقدمة في المنهج اللفظي)** ص20 حيث كتب الرجل يقول وبكل جرأة ما نصّه:

((يؤمن هذا المنهج – أي المنهج اللفظي في النظام القرآني– بوجوب عرض السنّة على القرآن وتنفيذ النصوص التي أكّدت على ذلك من السنّة ذاتها كقولهم – عليهم السلام –: (يُعرض الحديث على كتاب الله فما وافقه فيؤخذ به وما خالفه فيُضرب به عرض الحائط) وهي نصوص معطلة للأسف بسبب ما تعارف عليه العلماء من أن السنّة تفسر القرآن، بينما تؤكّد النصوص على ضرورة جعل القرآن حاكماً عليها ومصححاً لمتونها. ولذلك – والكلام كله للنيلي – فإن المنهج اللفظي يعتبر المنهج التفسيري المسمّى بـــ (تفسير القرآن بالسنّة) منهجاً باطلاً)).

ويقول في مكان آخر – بعد أن وضع قواعده في منهجه اللفظي – ما نصه:

((فتكون التراكيب (أي التراكيب اللفظية في القرآن بما فيها التعاقب الصوتي لكل كلمة – المؤلف) قد أحكمت نفسها وفيما بينها في كل النظام القرآني، وتكون أهميتها واحدة في هذا النظام مثلَها في ذلك مثَل حلقات السلسلة، إذْ أن فقدان أي حلقة فيها يجزئ السلسلة ويفقدها وحدتها، وبذلك يكون كل لفظ في القرآن هو حلقة في سلسلة)) المصدر السابق ص45.

وهكذا حتى يصل إلى غضبته الكبرى التي كان استعجلها قبل هذين النصين فدفعته غاضباً في الصفحة 15 إلى القول:

((إن مبدأ الخضوع للنظام قد مكّن المنهج – أي منهجه هو – من اكتشاف ما أملاه علماء التفسير على القرآن من آراء وما خالفوا فيه نظامه... حتى صار لديهم أهون من الكائنات البدائية أحادية الخلية في نظر الباحث الغربي في علم الأحياء. فلم يتحرك المفسرون وفق القرآن ونظامه، بل جرّوا القرآن وراءهم وجعلوه مترجماً لأفكارهم)).

وهنا يتوقف النيلي ليتنفس الصعداء ثم يواصل حديثه كأي خطيب متحمس يوصي كل من اقترب من تفسير القرآن قائلاً له:

((إن على الباحث أن يكون تابعاً للقرآن لا أن يكون هو قائداً له)).

هذا هو مختصر ما كان يهدف الوصول إليه في مقدمته عن المنهج اللفظي في القرآن بعد أن ثبت قواعده الستّة وهي: ((إبطال المترادفات، وإبطال تعدّد المعاني للفظ الواحد، وإبطال التقديرات المتنوعة للمركبات والألفاظ، وإبطال التقديرات العشوائية للترتيب العام للجملة، وإبطال المجاز كالتشبيه الاستفساري، والاستفسارات المزعومة والكناية والإيجاز والإطناب، وأخيراً إبطال تعدّد القراءات)).

ولا أريد هنا الدخول في هذه التفاصيل لأن الرجل فصّل كل ذلك في كتابه هذا وكتبه الأخرى، وراح يناقش النحويين والمفسرين والفلاسفة والمؤرخين ويقاتلهم بلا هوادة. وقد ردّ عليه نقاده بكل ما لديهم من أسلحة وبلا هوادة أيضاً مما سنمرّ عليه مروراً. فكل ذلك لتوضيح هدفنا في نقد وتحليل المنهجية النقدية للطرفين (المتحاربين)!! بل للأطراف المتحاربة!! التي تبدأ في البداية فتية يافعة كالحرب فعلاً تسعى بزينتها لكل جهولٍ:

حتى إذا اشتعلتْ وشبّ ضرامها أضحتْ عجوزاً غير ذات خليلِ
شمطــاء جزّتْ شعرها وتنكّرتْ مكروهةً للشــمّ والتــقبــيــلِ

المنهج اللفظي
واللغة الموحدة

نعم، يمكن أن يكون المنهج اللفظي الذي آمن به النيلي أو زعم أنه اكتشف هو المحصلة النهائية لما طرحه في كتابه (اللغة الموحدة) الذي قال فيه بوجود قيمة مسبقة للموجات الصوتية وفسيولوجيا الحروف كما سماها في كتابه وجاء على أساسها بعلمٍ جديد قائم على القصدية وتفنيد النظرية الاعتباطية للجرجاني ودي سوسير، مؤكّداً في كتابه المذكور، الذي لم أستطع فهمه فعلاً، لما فيه من تعقيدات حول مخارج الأصوات وعلاقتها بالحنجرة والأوتار الصوتية والذبذبات والموسيقى.

وأقول لم أستطع فهمه لأني أدرك أن الفرق بين لفظتي (بحر) و(حرب) مثلاً لم يأتِ اعتباطاً في التعاقب الصوتي لكل منهما بحيث يجعل الأولى تعبيراً أو اسماً للبحر الذي نعرفه فيما يأتي اللفظ الثاني معنىً للحرب والقتال، وكذلك التعاقب الصوتي لنفس الحروف، أي (ح – ب – ر) لتجعل منها اسماً لمادة الكتابة التي نعرفها هي الأخرى، وهكذا في التعاقب المغاير الآخر لهذه الأصوات والتي يُصنع منها كلمات كثيرة أخرى في حالة إضافة ضمّة هنا أو كسرة هناك أو شدّة في ثالثة وهكذا.

نعم، لم أستطع في الحقيقة أن أصل إلى القصدية التي زعم الرجل أنه توصّل إليها في كل لفظة من الألفاظ التي صيغ منها القرآن وقال أنها غير عربية طبعاً لأن القرآن – في هذه الحالة – يكون قد أنزل بلسان عربي ولكن ليس بلغة عربية ما دامت هذه الأصوات أو معظمها موجودة في كل لغات العالم. وإن الخالق العظيم هو الذي رتّب هذه الأصوات وجعل من تعاقبها ألفاظاً يتفاهم من خلال إطلاقها المخلوقين.

هذا مع لفظ واحد بثلاثة أصوات، مثَله مثَل لفظة (حصان) التي شرّق المؤلف فيها وغرّب، مقتحماً حصن اللغة واشتقاقات هذه الأصوات الأربعة وكيف (تخرّج) منها أو خرجت من (ح– ص– ن) فصار (حُصْن) و(حصين) و(حصان) و(صحن) و(نصح) وانتقلت إلى اللغات الأخرى بعد التحريف المتعّمد الذي طرأ عليها على امتداد ملايين السنين (طرأ على ألفاظها طبعاً) لتُطلق على المسمى الذي نعرفه وهو (الحصان) المعروف في اللغة العربية والذي لديه مائة اسم أو أكثر أو أقل كـــ (الجواد) و(المهر) و(الفرس) و(الخيل)، مثَله مثَل الجمل الذي صار (گمل) ثم صار (كمِل) (camel) باللغة الانگليزية وهكذا (الفتى، والحدَث، والغلام، والصبي، والشاب، واليافع) وما اشتُق من كل هذه الأصوات وانتهى إلى ما نسميه اليوم معنى أو دلالة تدلّ على مدلول، فصار الحصان إسماً للحيوان الذي نعرفه

وصرنا نطلقه على هذا المسمى ولا نطلقه على الثور أو الحمار أو البغل، ومثله كلمة (الأسد) المنشقة من (سدّ) والمشتق عنها سيادة وسؤود ومسدّد وهكذا إلى ما لا يُعدّ ولا يحصى من هذه الألفاظ والأصوات وتعاقباتها التي تعبر عن القوة والقدرة والمنَعة، وهي صفات (الأسد) الحيوان، وليس المجاز.

وما دام النيلي هذا يعتقد بأن هذه الأصوات من صناعة خالق واحد، فإنها لم توضع اعتباطاً لتجعل من أصوات وحروف الحصان حصاناً وليس حماراً أو بغلاً، وبالتالي فإن كلام الله الذي هو القرآن لا بد أن يكون مهندَساً بشكل دقيق ليس للاعتباط أو العشوائية فيه مكاناً على الإطلاق – كما يرى الجرجاني ودي سوسير – اللذان آمنا بالاعتباط اللغوي. وبالتالي يجب أن نفهمه (أي نفهم القرآن) – كما يقول الرجل – بألفاظه وتعاقب الأصوات فيها دون أن نحشر مرادفاتنا أو مجازاتنا أو معانينا أو تقديراتنا لكي نفسرها كما نحب ونهوى وعلى أساس قواعد وضعناها اعتباطاً هي الأخرى فنلتزم بها متى نشاء ونتنصّل منها متى نشاء، وبالتالي نشوّه القصد الذي نزلتْ فيه ووضعتْ كل لفظ، بل كل صوت في مكانه الدقيق.

فلا يصحّ مثلاً – كما يقول النيلي – أن نشرح كلمة (سجّين) التي لا نعرف معناها بكلمة (سجن) أو (جهنم) في قوله تعالى: ﴿كلا إن كتاب الفجار لفي سجّين﴾ وإنما أن نفسرها كما

فسّرها منزّلها في الآية التي بعدها مباشرة حيث قال عز من قائل:

﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ* كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ أي أن معنى كلمة سجين هو (كتاب مرقوم) فلا هي سجن ولا سُجين (تصغيراً) ولا جهنم ولا صقر ولا جحيم ولا معتقل ولا حبْس ولا هم يحزنون. ولكن الرجل نسي في زحمة اكتشافه لهذا التفسير (تفسيره هو) أن تفسيره الآية لا يأتي منسجماً أو مفهوماً هو الآخر إذا أخذناه على حاله. إذ ما معنى أن يكون كتاب الفجار في كتاب مرقوم؟ لاسيما مع وجود كلمة (في) وتأكيدها (لفي) بمعنى كيف يصحّ أن نقول: ((كلا إن كتاب الفجار لفي كتاب مرقوم)) أي إن هذا الكتاب (موجود) في كتاب مرقوم؟! كتاب في كتاب !! لا أدري.

ضربتُ هذا المثال الذي أتى به النيلي كشاهد وشاهد فقط على حيرتي حين أقف أمام عشرات بل مئات الأمثلة المثيرة التي يُحرِج فيها الرجل المفسرين ويستوقفهم ولا يجد نفسه خارجاً من حيرتهم وحيرته أحياناً إلاّ بشق الأنفس أو الترك.

نعم، هذا ما وجدته في معركة الضمائر في (آية) إبراهيم مثلاً وكيف أن الرجل خاض غمارها بشكل مقتدر حيّر فيه كل ما قيل أو يقال فيها عن عائدية الضمائر التي أعياني فيها ولم أجد متنفساً إلاّ بشق الأنفس أيضاً. الآية الكريمة هي:

﴿ألم ترّ إلى الذي حاج إبراهيم في ربّه أن آتاه الله الملك﴾ فمن هو الذي آتاه الله الملك هنا ؟ إبراهيم أم نمرود ؟ إذْ يؤكّد المفسّرون أن نمرود هو المحتج هنا وأنه هو الذي آتاه الله الملك، فيما يرى النيلي أن إبراهيم هو صاحب الاحتجاج، ويستغرب كيف يصحّ أن يؤتي الله المُلك لظالم، والنبي أولى أن يؤتيه الله المُلك، والفرق بين (أوتي المُلك) و(آتاه الله المُلك)، ثم يتساءل كيف يجعل المفسرون من إبراهيم باحثاً عن ربه بين الكواكب فمرّة يعبد كوكباً وبعدها يعبد قمراً وأخرى يعبد شمساً لأنها أكبر، فيما أراه ربه ملكوت السماوات والأرض، فنسي (حاشاه طبعاً) هذا الملكوت العظيم وراح يبحث عن ربه بين الكواكب.

تأمل معي أخي القارئ الكريم في الآيات الكريمة التالية:

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى القَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾ الأنفال 75-79.

نعم، بعد أن أثار النيلي هذا التساؤل الغريب وأتى بهذه الآية، وبعد أن تحامل قبلها على فلسفة الفارابي وابن سينا والكندي وابن رشد وكيف أنهم (أفسدوا عقول الخلق)، بل إن فلسفتهم (حوّلت المنطق إلى فلسفة مضحكة – حسب تعبيره – حينما قاموا بالبرهنة على وجود الله بطرائق تشبه هذه كل الشبه وانطلقت تلك الطرائق لتنعكس على تفسير الآيات) (نظام المجموعات الكامل ص192)

أقول بعد أن أثار النيلي ذلك التساؤل، وشن هذه الحملة على الفلاسفة وكيف أنهم (أفسدوا عقول الخلق) راح يتساءل متهكماً مرّة أخرى قائلاً:

((أسألُهم: كيف يبحث (إبراهيم) عن ربه ويبرهن لهم على أنه اكتشفه من أفول النجوم والكواكب بعد أن جنّ عليه الليل وبعد أن رأى قبلها ملكوت السماوات والأرض؟)).

ولا يكتفي النيلي بذلك بل يواصل مقتحماً:

((هل ترى أخي القارئ أن الذي زار الملكوت السماوي كان لا يدري من هو الله؟ فرجع وهو يبحث عنه بين الكواكب؟)) ولكنه في نفس الوقت لم يحدّد القائل وترك القارئ حائراً يبحث عن القائل بلا جدوى. بعد كل ذلك يختم النيلي هذه الاستفسارات بل هذا الكتاب بعبارة موهمة تحتوي ألف تساؤل يقول فيها:

((نعم، لكن صدق من قال: (ليس كل ما يُعلم يُقال))).

وهنا، ومن جانبي لا أريد الدخول في هذه المعمعة، ولا أريد العودة إلى تحليل إيمان أو دراية نبي الله إبراهيم (عليه السلام) وكيف أنه سأل ربه يوماً ليطمئن قلبه ﴿**أوَ لم تؤمن؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي**﴾ وذلك لكي يُطمئِن قلوب المؤمنين ولا يترك شكّهم قاتلاً لإيمانهم، لاسيما وأن أكثر الناس مشركون حتى المؤمنين ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾ قلوب الفارابي والكندي وابن رشد وابن سينا ودرجات إيمانهم و(سفسطتهم) والتشكيك في نواياهم، كما أني لّن أبحث عن مرام النيلي وهدفه ونيته مما أظنه يخرجني عن منهجيتي في النقد وربما يدخلني في منهجيته التي لم أكن أتمناها فيه بل كنت تمنيت عليه في استطراده المخلص حول الآية المذكورة عن إبراهيم وتعطشه لليقين المطلق، وعلى طريقة السيد النيلي نفسه في عدم التساهل في الخروج عن قواعده الست المذكورة سابقاً، وإصراره على تخطئة كل من يحوّل الماضي إلى حاضر والحاضر إلى مستقبل أو يتصرف خارج إطار القوالب الصارمة التي ثبّتها في قواعده الأخرى للغة العربية أن يوضح للقارئ الكريم الفرق بين كلمة (نُري) وكلمة (أرينا) في بداية هذه الآيات التي استعان بها على الاستدلال على فكرته، وهل ثمة فرق بين الماضي والحاضر هنا (وكذلك نري) أم أنه جعل

الحاضر ماضياً (وكذلك أرينا) لكي يمرر الفكرة ويطبق منهجيته الغاضبة على الفلسفة والفلاسفة والناس أجمعين ؟!

كل ذلك وهو نفسه المحتج في كتابه (النظام القرآني) تعليقاً على قول المفسرين في تحويل كان إلى يكون، وكيف تَرك هؤلاء المشككين يُشْكلون على القرآن استعمال صيغة الماضي بمعنى الحاضر في قوله تعالى (وكان الله غفوراً رحيما) بقولهم (أي هؤلاء المشككين): (أوليس الله دائماً غفوراً رحيما) وجواب النحويين والمفسرين: ((إن ذلك من باب مجيء (كان) بمعنى (يكون)))! النظام القرآني ص59.

وكيف ردّ الرجل على الجميع معاً (المشككين والمفسرين والنحويين) في أن (كان) في الآية المذكورة تتعلّق بزمن معين وواقعة معيّنة ((ولا تحتاج الآية إلى مثل تلك التأويلات التي تحرّف اللغة، وتلوي الكلام وتجعل من الزمن الماضي حاضراً أو العكس)) نفس الكتاب ونفس الصفحة.

ويضيف مؤكّداً على الدّقة في منهجه اللفظي بأنه (ومن خلال هذا اللفظ وربطه مع باقي التراكيب تنكشف لنا قواعد وسنن المغفرة الإلهية، ونعلم به الحدود بين ما يُغفر وما لا يُغفر).

وإذا أردتُ أن أسوق أمثلة أخرى مجرد أمثلة فإني أرى نفسي غارقاً مع باحث متعمق ومفكر مبدع ولكنْ يفوته ما يفوت كل إنسان وله كبوات كما لكل جواد كبوة. ولعلي أكون منصفاً

إذا جئت بأمثلة – على سبيل الحصر – مستدلاً على إبداع الرجل وعميق تأملاته في كتاب الله ومن هذه الأمثلة ما يلي:

زكية أم زاكية

تثير الآيات الكريمة المتعلّقة بقصة النبي موسى والعبد الصالح تساؤلات عديدة لا بدّ من التأمل فيها أو التوقف عندها، جوهر هذه التساؤلات هو الآية الكريمة التي تقول على لسان موسى مخاطباً العبد الصالح: ﴿**أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً**﴾ الكهف:74.

إذ جميعنا يعلم أن موسىعليه السلام جاء ليتعلم من العبد الصالح لا ليجادله ويناكفه، ومعنى كلمة (زكية) لدى المفسرين هي النفس الطاهرة البريئة من الذنوب التي لا تستحق القتل لاسيما إذا كانت هذه النفس دون سنّ التكليف (غلاماً).

فهل كان خطأ أنْ يوصف المقتول أنه (نفس زكية) من قِبل موسى؟ وإذا كان كذلك فلماذا قُتل إذن من قِبل العبد الصالح؟ أو قل كيف عرف موسى أنه نفس زكية وهو جاء يتعلم من الخضر بعد أن ألزم نفسه أنه لن يسأل ما دام تابعاً لهذا العبد الصالح (القاتل) ؟ ثم لماذا قتل العبد الصالح نفساً طاهرة مبرأة قبل ارتكابها جناية؟ ومَنْ قال أن هذا الغلام لن يتوب عن ذنوبه التي ارتكبها في (مراهقته أو شبابه) عند بلوغ سن الرشد؟

وهل سأل موسى ذلك السؤال مستنكراً هذا الفعل؟ أم أنّ سؤاله كان استفهامياً وليس استنكارياً ؟! وهل هناك معنى آخر لكلمة (زكية) هنا لم يلتفت إليه المفسرون أو يوضحوه بالدرجة التي تثير كل هذه التساؤلات وغيرها ؟

هذا هو بعض ما أشار إليه النيلي، بل أثاره في هذه القصة اللافتة. لاسيما بعد أن أكّد أنّ كلمة (زكية) هي في الأصل (زاكية)، وهو ما وجده فعلاً في ست قراءات من القراءات السبع للقرآن الكريم، ولكن المفسرين وبالأحرى كُـتّاب (الوحي) اختاروا كلمة (زكية) وثبتوها في المصحف رغم أنها قراءة واحدة من ضمن (سبع) تقول ست منها أنها (زاكية) بتطويل الفتحة، التي تعني الناشطة والنامية، وليس (زكية) بتقصيرها، فأوقعوا أنفسهم وأوقعوا المسلمين في ورطة عقائدية أو أيديولوجية لم يجدوا منها فكاكاً أثارت كل التساؤلات السابقة وما زالت، فراحوا ورحنا معهم مشرّقين مغرّبين نبحث عن مخرج مما حشرونا وحشروا أنفسهم فيه ولكن دون جدوى.

نعم، يرى النيلي أن الكلمة هي (زاكية) وليست (زكية) وراح يبني بنيانه هو الآخر على هذا الفهم الذي لم يُعطه حقّه في التوضيح ومما نتمنى على القارئ الكريم مراجعته في كتابه النظام القرآني على الصفحات 130 إلى 135.

مفسرون آخرون لم يفرّقوا بين اللفظين وعدّوهما معنىً واحداً، وراحوا يرتّبون تأويلاتهم على ضوء هذا الفهم الذي أخلّ كثيراً بالمغزى العميق لقصة الإتباع، فصيّروه معنىً مسطحاً بين شخصيتين متنازعتين وكأن موسى يقول للعبد الصالح مستنكراً: ((لقد قتلتَ نفساً طاهرة بريئة وجئت أمراً قبيحاً)) بدل أن يكون السؤال استفهامياً مؤدبا مفاده: ((لقد قتلت (شاباً) أو نفساً نامية نمواً حسناً وسريعاً بغير نفس، وما فعلته هو أمر نُكرٌ بالنسبة لي لم أستطع فهمه أو فهم حقيقته)) أي ليس منكراً ولا قبيحاً، وبالتالي يصير إخلال موسى بشرط الإتباع فقط وليس الإتباع نفسه أو الصحبة نفسها وهو (عدم السؤال) بل تكرار السؤال.

الأنكى من ذلك أن العديد من المفسرين زادوا في الطين بلّه وراح بعضهم يؤكّد أن السؤال كان استنكارياً فتوهّموا حصول غضب وغضب مضادّ بين موسى والعبد الصالح الأمر الذي جعل أحدهم (أي أحد المفسرين) يقول: أن موسى كان رجلاً انفعالياً كادَ يهمّ بضرب العبد الصالح، بل رفعه وجلد به الأرض – حسب تعبير بعضهم – وليس متسائلاً متسامحاً كان يلحّ عليه حبّ الاستطلاع، ويسعى للحصول على إجابة مقنعة ترضي فضوله وفطرته، بل قل ظمأه للمعرفة، ولكنه كان مستعجلاً في إرواء ذلك الظمأ فلم يستطع صبرا.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: إذا كانت كلمة (زاكية) تعني في ما تعنيه: (المكتمل النمو النشيط فيه) – كما يقول النيلي – ولا علاقة لها بالكفر والإيمان، والطهارة والبراءة والهدى والظلال، فإن المغزى سيقترب ويستقيم أكثر. وإذا كان ليس كلّ غلام بريئاً وطاهراً بلحاظ أن الكثير من الغلمان يرتكبون من المعاصي والآثام ما لا يرتكبه حتى الكبار، يصبح المغزى أكثر وضوحاً. وإذا أضفنا شيئاً ثالثاً وهو الأهم: أن قرار القتل لم يكن في قصة الغلام صادراً عن الله سبحانه وتعالى كما جاء في الآية وإنما عن جماعة لم يذكرهم القرآن الكريم بضميمة نون الجمع المستخدمة في هذه الآية تحديداً، إذْ قال العبد الصالح: ﴿**فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً**﴾ الكهف80. بينما كان قرار إعابة السفينة قراراً خاصاً صادراً من قِبل العبد الصالح نفسه: ﴿**فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا**﴾. أما قرار إقامة الجدار فكان أمراً إلهياً مباشراً ﴿**فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا**﴾ وهذه كلّها فيها تفاصيل كثيرة تتعلق بمسائل الإرادة والقضاء والقدر والمشيئة الإلهية وكيف أن المشيئة هي غير الإرادة، لأن الله تعالى يشاء للإنسان أن يفعل الخير والشرّ ولكنه لا يريد له أن يفعل الشرّ مثلاً، وهنا الفرق كبير بين الإشاءة والإرادة وهو ما لا مجال للإفاضة فيه هنا فنتركه.

أما أنا فأرى أن سبب توجّه المفسّرين إلى المعنى الذي ذكره النيلي، وإصرارهم على (زكية) بدل (زاكية)، فهو عدم قدرتهم الغوص في فهْم المغزى الذي أرادت القصة توضيحه، وهو التمييز بين الطاعة العمياء والطاعة الواعية، أو قُل بين الطاعة الطيبة الطوعية، والطاعة القهرية المستبدّة، وخاصة بين الأمير والمأمور أو بين التابع والمتبوع.

نعم، إنّ الذي يترشّح عن الطاعة الواعية الطيبة هو التسامح والتكامل والارتقاء، مع استبعاد كامل للتنفيذ بدون أي تأفف أو تململ، وذلك للثقة التي يضعها التابع في تقديرات أميره وحكمه، وتُنبئ عن حب واحترام متبادل بين الطرفين. أما الطاعة الثانية فلا تشي إلا بالقهر والتعسف والشك، واستعباد التابع من قِبل المتبوع وعدم انفتاح الأخير على تساؤلات الأول رغم مشروعيتها، بل اعتبارها تساؤلات استنكارية وليس استفهامية، وبالتالي – حسب هذا الفهم – لا يمكن الوصول إلى الانسجام والوئام الكاملين على الإطلاق.

صحيح، إن إثارة التساؤلات لحظة التنفيذ أمر سيء غير مرغوب فيه، ولكنّ تكميم الأفواه وعدم السماح بإثارة التساؤلات الاستفهامية حتى بعد التنفيذ لا تقلّ سوءاً عن الأولى لاسيما إذا كانت التساؤلات من أجل التكامل والتنمية المعرفية – كما يقولون –.

بغير هذا الفهم يأتي اجتهاد المفسرين الذين يُصرّون على فقه الطاعة غير المشروطة، ويأتي فهمهم الناقص لهذه الآية، فيعطي للمتبوع حق القهر والتسلّط، ولكنه لا يجني من التابع غير التململ والحنق، أو على الأقل انكماش الإخلاص والتسليم المطلوبين لتحقيق الأهداف المرجوّة.

ومن هنا يأتي فهمنا الآخر للآية القرآنية الكريمة: ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾.

أما كيف تأتي القناعة ويُرفع الحرج من النفوس، بل كيف يأتي التسليم المطلق الذي لا يتمّ الإيمان إلاّ به إذا لم يكن هناك قاسماً مشتركاً بين الحاكم والمحكوم أقلّه الاعتقاد بعصمة الأمير وحكمته مثلاً.

نعم، إن أكثر الناس مشركون رغم إيمانهم الظاهر: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾ وبالتالي فإن تكامل إيمان الإنسان لا يمكن أن يحصل إلا إذا وجدّ انسجاماً كاملاً بين قناعته وقناعة أميره، وهذه لا تتأتى إلاّ بالتسليم الكامل للحكم المترشح عن قناعة مطلقة بالحاكم. بمعنى أن تنفيذ الأوامر هو امتداد طبيعي للقناعة الكاملة المترشحة عن الإيمان الكامل وليس العكس، فقد تحصل قناعة ما بدون إيمان ولكنْ من المستحيل حصول الإيمان بدون قناعة.

ويمكن أن يكون هذا الفهم مغايراً تماماً لما أرادَ المفسرون إيصاله إلى الناس. فالأصل أنْ يُقبل من المؤمنين إيمانهم بمجرّد رضاهم عن حُكم النبي في نزاعهم، وليس (إلاّ) أن يرضوا بحكمه ﷺ في هذا النزاع، مثال ذلك قول القائل:

((أنا اقبل بحكمك إذا أقنعتني بهذا الحكم)) بضميمة ((إنك تعرف أني أحبك وأؤمن بعدلك)) والآخر القائل: ((أنا لا أقبل بحكمك إلاّ إذا أقنعتني بهذا الحكم)) والثالث المؤمن الكامل الإيمان فعلاً الذي لا يُتعب أميره ولا يجادله، وكأن لسان حاله يقول: ((أنا أقبل بحكمك كيفما يكون هذا الحكم)) وهو ما لا يتأتى إلاّ للقلة (الذين يؤمنون بالله وليسوا به مشركين).

وهذا أمر صعب مستعصب لا يتحمّله إلا نبي أو وصي نبي أو مؤمن امتحن الله قلبه بالإيمان، مَثَلُه مثَل النبي موسى مع العبد الصالح.

أظن أن هدف النيلي الاستشهاد بهذه الآية والتوقف عندها هو ما أشار إليه عبر العنوان الذي جاءت تحته وهو "مثال على القراءة المثبتة خلافاً للنظام الهندسي في القرآن" وتحت القاعدة السادسة في إبطال تعدّد القراءات التي عرّفها النيلي بالنصّ الدقيق التالي:

((لا يجوز للباحث في هذا المنهج الاعتقاد بصحة جميع القراءات للفظ الواحد ويتوجّب عليه الأخذ بالقراءة التي تطابق

النظام القرآني وإنْ كانت شاذّة. وعند غياب القراءة المطابقة للنظام يجب التوقف والمرور من طريق آخر أو الترك)) نفس المصدر ص127. وهو هدف نبيل بحدّ ذاته كونه يسعى إلى التأمل الدقيق في ألفاظ ومعاني القرآن الكريم الذي قيل إنه حمال وجوه، ولا يعلم تأويله إلا الله.

الحمأ المسنون

يؤكّد النيلي جزافية المناهج اللغوية التي سببت اعتباطاً عاماً لما سمّاه الفكر (المفسِّر) للدين، واعتبر ذلك سبباً بل أداة فعالة لكل من أساء إلى الدين سواء كان من داخل المؤسسة الدينية أم من خارجها، عن قصد أو غير قصد، وهذا هو الذي أدى إلى انفصام العلاقة بين المؤسسة الدينية والمؤسسة الثقافية – حسب تعبيراته – (كتاب أصل الخلق وأمر السجود الصفحة66).

استدلالاً على ذلك يستشهد النيلي وفي نفس الكتاب بنماذج من تفسيرات هشة ينقل قبلها قولاً للإمامعليه السلام يقول فيه: ((لو عرف الناس كيف خُلق آدم ما اختلف رجلان)) ويضيف: ((لم يخطئ المفسرون في معنى (الحمأ المسنون) إذْ زعموا أنه الطين الأسود المنتن خطأ فكرياً وعقائدياً وحسب، بل أخطأوا خطأ لا يغتفر من حيث اللغة)).

فالمسنون هو الموضوع في سنّة وشرعة ومنهج من الأصل، ولا علاقة له بـــ (المنتن)، والمفعول الذي يتعلق بالنتن هو (متسنّه) وليس مسنون كما في قوله تعالى: ﴿**فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ**﴾، أي إن الفعلين (سنِهَ) و(سنّ) فعلان منفصلان لا علاقة بينهما لا من قريب ولا من بعيد، فالفعل سنِهَ – يتسنّه معناه تبدّل وتغيرّ فهو متسنّه، أما سنّ – يسنّ فهو يبيّن أو يضع فهو مسنون وموضوع ضمن سنّة. وهكذا في (الصلصال) الذي هو الخلاصة المتركزه المأخوذة من (الحمأ) وهو القطرات الأخيرة من الماء الجاري، فالماء يصلصل. وإذا لم يبق منه إلاّ القليل قيل صلّ الماء أو صلصل.

وهنا تكون كلمة (الفخار) في الآية الكريمة (خلق الإنسان من صلصال كالفخار) ليست الطين المفخور بالنار الذي يصلصل إذا ضربْته – كما أجمع المفسرون – وإنما المتفاخر في ذاته، والمتميز على أشباهه، و(الحمأ) هو كتلة الطين أو المادة الحيّة التي يترشّح منها هذا الصلصال. والموضوعة في شرعة ومنهاج (مسنون) ولها قدرة ذاتية على حماية نفسها عبر التوالد والبقاء عن طريق الانقسام والتكاثر، كما أن لها قدرة أخرى على التفاخر أي الترقي والسموّ وهكذا.

وللمزيد من ذلك يمكن مراجعة كتاب أصل الخلق وأمر السجود ص3 – 35 وتفصيل السنّة والمنهج الذي وُضعتْ فيه

هذه المادة وتشكّل منها الإنسان في أصل خلقه ونشأته وتطوره من (سلالة من طين). وهذا يعني أن الإنسان خُلق في سنّة ووُضع ضمن سنّة، وعليه أن يتجاوز هذه السنّة المسنون فيها قضاءً وقدراً.

وما أدراك لعلّ النيلي ومناوئيه هم ضمن السنّة التي أراد الله تعالى من خلالها اختبار العباد إنْ تكاملاً أو تسافلاً، رقياً أو نكوصاً، ليحقّ الحق على هؤلاء العباد فيهلك من يهلك عن بينة وينجو من ينجو عن بينة ضمن ما حاول النيلي تجليته في شرحه المبدع حول الذات ودورها في صياغة الإنسان سمواً وارتقاءً أو نكوصاً وهبوطاً. (راجع هذا الموضوع بالتفصيل في كتابه (المحاضرات القصدية) وموضوعيه الرائعين (الحرية في الفهم الفلسفي) و (يهدي الله من يشاء) وقوله:

((إن إبليس في قصة الخلق لم ينكر أن الله هو الخالق، وأنه هو الربّ الذي لا ربّ فوقه، ولم ينكر شيئاً من ضرورات الدين لكنه (اجتهد) برأيه في مسألة السجود لآدم فاتخذ رأياً مخالفاً لرأي الله في المسألة...)) فيما الذي يُفترض أن يكون هو ((أن معنى الإله الواحد أني لا أمتلك أي رأي في أية مسألة)) وهذا يعني – حسب تعبير النيلي طبعاً – ((إني أنتظر هذا الواحد أن يأمرني فأطيع)) ويضيف:

((نعم، إنها عبودية وتسلّط وقهر، فعليّ أن أقبل بالعبودية والتسلّط والقهر الإلهي لكي أبرهن أني راضٍ تمام الرضا بالإله الواحد، وإذا فكرتُ باختيار إله آخر فقد أبلغتُه بكل وضوح أني أريد مشاركة في الألوهية)).

وما دام النيلي يعتقد، ونحن معه أيضاً، بأننا لم نكن نملك أية إرادة في وجودنا ومجيئنا إلى الدنيا، كما لا نمتلك الإرادة في موتنا فإننا مقهورون، وعلينا أن نكيّف أنفسنا مع الوجود القهري والموت القهري لكي لا ننتحر أو نجنّ.

يوضّح النيلي هذه الإشكالية بكلمات أخرى جاء نصها كما يلي:

((إنّ مشكلتي مشتركة لأن هناك طرفاً آخر فيها، ذاك هو الذي ألقاني في أتون هذه الحياة، وهو الذي يسلبني حياتي بالموت... وهو الذي ابتلاني بهذا البلاء.... فإذا كانت مشكلتي على هذا النحو فليس ثمة شيء فيها سوى أنا وهو، وكل شيء آخر فيها إنما هو محنة من محن تلك العلاقة...)) – المحاضرات القصدية صفحة 119 –....

هجوم النيلي على النحويين والمفسرين

لا يتردد النيلي – كما قلنا – في هجومه على النحويين والمفسرين والمؤرخين كلما عنّ له أمر محيّر وذلك لما تصوّره فيهم من تعسف وقلّة فهْم وبشكل فاقع أحياناً، وكم تمنيت على قارئي الكريم أن يعود إلى ما كتبه عن سخريته بالمفسرين الذين سكتوا عن إعجاز القرآن الكريم وتخبطهم وجهلهم وخاصة في موضوع (لا يأتون بمثله) في كتاب النظام القرآني ص 287 – 308 والذي وضعه تحت عنوان (إنهاء المنهج اللفظي لحالة الدفاع السلبي عن القرآن).

ويضرب النيلي في هجومه هذا على النحويين والمفسّرين عشرات الأمثلة التي لا يمكن ردّها بسهولة بعد أن يقول: ((لقد وُضعت القواعد النحوية والآراء التفسيرية بتعسف يدعو إلى الاستغراب إنْ لم يكن يدعو إلى الاستهجان)). ثم يروح متحاملاً على ما أسماه الاعتباط اللغوي الذي صرف العقول عن تفهّم كتاب الله والتأمل فيه بالشكل الصحيح، وذلك عبر التقديرات المتعسفة والمَجازات البائسة فيروح (أي هذا الاعتباط) مشوّشاً على المتلقّي صفاءه بطرائق لغوية ملتوية تسمح بتمرير الآراء وطرحها على أنها مراد الله.

نعم، يستدلّ النيلي على هجمته هذه بعشرات بل مئات الأمثلة التي لا يمكن دحضها بسهولة، ومنها على سبيل الحصر لا الإحصاء، ما نسبه إلى بن خالويه في كتابه الموسوم بـــــ ((ليس في كلام العرب)) الذي جاء فيه ما نصّه:

((وليس في كلام العرب (بَعْدَ) بمعنى (قَبْل) إلاّ في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾)) الأنبياء 105

ويعلّق النيلي على هذا (التفسير المتعسف) بالقول:

((فقد ظنّ (أي بن خالويه) أن الذِكر هو القرآن، إذن كيف يكون (الزبور) من بعد الذِكر؟ فلابدّ أن يكون (من قَبل) لأنه قبل القرآن)) ويضيف ساخراً:

((فهل سمعتم أيها الناس في تأريخ الخلق كلّهم شرحاً لمفردة لغوية بهذه الطريقة العجيبة؟)) ألم يكن الأجدر بالنحوي دون سواه أن يتوقف هنا ويتأمل، فعسى أن يكون ما قاله الناس عن معنى الذِكر شيئاً خاطئاً؟- النظام القرآني ص 140 – ثم يروح متسائلاً أيضاً:

(كيف فات النحويون والمفسرون الفرق بن القرآن والذِكْر فيما نجد نصوصاً قرآنية توضح ذلك لاسيما قوله تعالى ﴿**ص والقرآن ذي الذكر**﴾ فهل يصحّ أن يُقال أنّ هذه الآية تعني (ص والقرآن ذي القرآن؟!)

ساتر ومستور، ومات ويموت

يلتفت النيلي التفاتة أخرى إلى تفسير المفسّرين لقوله تعالى (حجاباً مستوراً) في الآية الكريمة ﴿**وَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً**﴾ الإسراء 45 فيقول:

(يقول الاعتباط أن المستور هو الساتر، فيصير المعنى المضحك هو (حجاباً ساتراً) أو (حجاباً حاجباً)) فيما يرى النيلي إن كلمة (مستور) هنا هي مستور نفسها (الصفة)، أي محجوب ومستور عن رؤيتهم ليقطع الطريق على منكري وجوده سبحانه ليحول بينهم وبين قدرتهم على اختراق قارئ القرآن أو خداعه بحيث لا يستطيعون الوصول إليه.

وهكذا في الفعل المضارع (يموت) في قوله تعالى عن نبي الله يحيى الذي (مات فعلاً) قبل نزول القرآن، وسرّ قوله تعالى: ﴿**وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يُبعث حياً**﴾ فمتى سيموت وهو الميت فعلاً حسب فهمنا لمعنى كلمة (الموت) التي نحا فيها النيلي منحىً آخر هو غير الموت المعروف لدينا، وإنه (أي النبي يحيى) قُتل ولم يمُتْ، ويروح مفصلاً الفرق بين القتل والموت مما أتمنى على القارئ أن يذهب إليه في كتب النيلي نفسه ليطّلع على بعض أفكار الرجل قبل أن يحكم له أو عليه، مما يوقعه ويُوقعنا في المنهجية النقدية المحظورة التي تحفظّنا عليها والتي كانت سبباً في كتابة هذه السطور!!

ومثال آخر ﴿وقضى ربك ألاّ عبدوا إلاّ إياه...﴾

ومن الأشياء اللافتة الأخرى التي انتبه إليها النيلي في تأملاته المعمقة في القرآن الكريم هو ما أشارت إليه الآية القرآنية الكريمة:

﴿وقضى ربّك ألاّ تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحساناً...﴾ الإسراء 23

أشار النيلي أن (الحلّ القصدي) الذي اعتمده في منهجه اللفظي، يحلّ إشكالية لفظة (قضى) في هذه الآية، فيقول:

((فعلى الحل القصدي (أي منهجية الحل القصدي))، إن كلمة (قضى) فعل ماضٍ، ولما كان القضاء هو إمضاء الأمر وتقريره ليكون، فإن الناتج هو انه تعالى أمضى الأمر بعبادته وحده، فكيف ظهرت المعاصي إذن، ولماذا لم يعبُده بعض الخلق وعبدوا غيره أو معه، بل لماذا نتحدث عن الحرية وأين هي؟))

ويضيف:

(وذلك أن الله يقضي بحصول فعل الطاعة بعد أن يفعلها الإنسان وكذلك المعصية، وهذا هو جوهر الآية، فإذا قضى

بالطاعة وحدها، فهنا جبرية لأنه لابدّ من تحقّق قضائه. قال تعالى:

﴿**وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون**﴾ البقرة 117

(ووِفق الجبرية والحتمية، هذه مخالفة للنصّ مع الواقع. إذْ أشارت الآيات إلى عبادة غير الله، بل بعث الرسل للدعوة إلى عبادته وحده!) المحاضرات القصدية ص106.

توضيحاً لهذه الإشكالية اللفظية أو التفسيرية يعلّق النيلي هنا قائلاً:

(لقد كتمتُ البحث لعدم الإمكانية على تخريج هذه الآية ما لم يحدث خلل لا ينجبر للحلّ القصدي للغة، وكتمته عدة سنوات حتى وقع في يدي كتاب عن القراءات الشاذّة وجاء فيه عن رجل قرأ الآية عند الإمام الصادق عليه السلام قائلاً ما مفاده: لو كان قضى بذلك لما وُجد مشرك ولا كافر إنما هي (ووصّى ربّك) فجعل النسّاخ الواو قافاً لاسيما وهناك مؤيّدات لفظية – حسب منهج النيلي للوصية بالوالدين لا القضاء كقوله تعالى: ﴿**ووصّينا الإنسان بوالديه**﴾ العنكبوت 8).

أكثر من ثمانين من مثل هذه الالتفاتات لمّح إليها النيلي، ودعا المفسرين إلى مراجعة قراءتها وعدم الإصرار على قراءة واحدة قد تُسبب إشكالات محرجة لهم وللمسلمين الذين

يقلّدونهم ويصغون إليهم. ندعو القارئ الكريم إلى مراجعة كتب السيد النيلي والمرور على هذه الالتفاتات واعتبارها ثروة تأمّلية من جانبٍ وانفتاحاً واعياً على عمق القرآن الكريم من جانبٍ آخر، لاسيما وأن المأثور الديني يقول: ((القرآن الكريم ظاهره أنيق وباطنه عميق)) و ((إنه حمّال ذو وجوه)).

ومن الأمثلة على ذلك رأيه في (المسجد الأقصى) الذي هو (أدنى) من الزاوية الجغرافية للكرة الأرضية بلحاظ المسافة بين الشام والحجاز، وكذلك موضوعة البقرة التي وردت في سورة البقرة، وأمثلة لافتة أخرى على ما سمّاه عائدية الضمائر في نظام المجموعات، والتقديم والتأخير في الألفاظ القرآنية، وخاصة في تفسير آية ﴿**وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ**﴾ الأحزاب 6. والفرق بين (القرية) و (أهل القرية)، وغير ذلك من إشارات ممتعة ونافعة لم يجرؤ المفسرون اقتحامها أو الاقتراب منها، وكلها تقود إلى التأمل والتدبّر في كتاب الله العزيز الذي لا حدود لتأويلاته، وحيث يُبقي الذهن منفتحاً على عالَم شفاف لا حدود له كذلك، ويمتد انفتاحه بامتداد الأزمنة والعصور دون توقف.

لا يأتون بمثله

من ناحية أخرى يأتي إبداع النيلي في تحليل الإعجاز القرآني لآية (لا يأتون بمثله) فقد كان موفقاً جداً في تهديمه الكثير من آراء كبار المتطفلين على إعجاز القرآن الكريم. لاسيما الذين قالوا أن القرآن دليل على الإعجاز، إذ ليس النبي هو الذي أثبت أنه كلام الله، بل القرآن هو الذي أثبت أن محمداً هو نبي مرسل، ويروح يضرب أمثلة في أن المعجزة لا تحتاج إلى دليل لأنها هي الدليل على نفسها، كمعجزة عيسى في نطقه، ومعجزة موسى في فلق البحر، ومعجزة إبراهيم مع النار التي جعلها الله برداً وسلاماً وغيرها.

نعم، راح النيلي في التفاتته هذه يقول:

(تقولون (أي انتم أيها العلماء والمفسرون) أن القرآن يجري على الأساليب العربية وقواعدها وبلاغتها، فأين يكمن السرّ في عجزنا أن نأتي بمثله إذا كان كلامنا وكلامه محكومين بنفس القواعد؟) ويضيف:

(وأمام هذا السؤال الكبير عجزت عقول الأمة عن الإجابة المنطقية طوال العصور... وحصَر العلماء أنفسهم في الزاوية الحرجة أمام المشكّكين..... و(بالتالي) فإنهم لن يقدروا على الإجابة عليه وهم يُخضعون القرآن لقواعدهم حتى تقوم الساعة)

والسبب كما يرى الدكتور علي الوردي هو الآخر – أن المفسرين اعتمدوا على اللغويين، واللغويون (جاءوا بشواهد من جدودنا الصعاليك الماجنين) –حسب النيلي–حتى انتهى الأمر إلينا فجعلنا القرآن واحداً من تلك الشواهد. وهو أمر طالما دَفَعَنا الخصم إليه وزيّنه لنا)– النظام القرآني ص 297.

وهكذا حتى يصل النيلي إلى ما وضعه (النظّام) في ما سمّاه المسلمون موضوع الصرفة أي صرْف المسلمين عن الإتيان بمثله وتأكيد عجزهم الكامل على ذلك، وكيف أن شيخ المعتزلة هذا جاء بنظرية (سخيفة) – حسب تعبيره – عن موضوع الصرفة هذا وتأييده من قِبل الأغبياء من المفسرين والنحويين والفلاسفة وعلماء الكلام.

وخلاصة نظرية النظّام في الإعجاز القرآني هي:

((إنّ الخلْق ممن يعرف العربية ويُحسن تراكيبها قادر في الأصل على الإتيان بمثل القرآن ولكنّ الله صرفهم عن ذلك بقدرته وقوته القاهرة، فلن يقدروا على الإتيان بمثله)) نفس المصدر ص 297. ويعلّق النيلي على هذه النظرية المضحكة اللامنطقية – حسب تعبيره – أيضاً بقوله:

((ويكمن السخف في هذه النظرية من ناحية المنطق. فلو قال زيد لعمر:أنت لا تُحسنْ أن تكتب مثلي ولا تعرف ما الكتابة وإنّي أتحدّاك أن تفعل. فقال له عمر: لماذا يا زيد؟ فإني قد أفعل

إذا حاولت. وكلما مدّ عمرٌ يده إلى القلم والقرطاس ضربه زيدُ بحرسٍ شديد وضعه لهذا الغرض فيمنعونه كلّما همّ بأن يكتب. ومع ذلك تمرّ الأيام وزيدٌ يفتخرُ قائلاً: انظروا قلتُ لكم أنه لا يُحسنْ أن يكتُب)) نفس المصدر ص 298.

وهكذا يستمر النيلي في استخفافه بهذه الانجرارات ويواصل تهكّمه على أصحابها بشكل لاذع أحياناً لاسيما أولئك الذين لا يفرقون بين (المؤمنين) و (الذين آمنوا) مثلاً فيروحون مخلّطين مخبّطين. ويستغرب من أولئك في تصورهم أو عجزهم في عدم إدراك الفرق واعتبار الصنفين في خانة واحدة، لاسيما في قوله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول**﴾ الأنفال 270 و﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان**﴾ المجادلة 9. وكيف أن هؤلاء المفسرين يطلقون صفة (المؤمنين) على هؤلاء الذين (يخونون) الله ورسوله ويتناجون بـــــ (الإثم والعدوان) اللهم إلاّ إذا أرادوا أن يجعلوا من القرآن نصوصاً تخدم أهدافهم وصراعاتهم إذ يجعل هؤلاء للمؤمنين صفات سيئة منها الخيانة والاعتداء. ويقول النيلي هنا:

(إنّ الصراع المذهبي قد أخذ حصته هو الآخر في تقويض القواعد النحوية لخدمة هذا الصراع، وأنت تعلم أن هذه الأمة

كانت جاهلة بأي قواعد موضوعة للحياة العامة على بساطتها فضلاً عن أن تفكّر بوضع قواعد للغة) ويضيف:

(إن وضع القواعد كان من أهدافه تحجيم دور القرآن الكريم في الكشف عن حقيقة الفئات المتآمرة، وإيقاف نشاطه عن الاتجاهات الأخرى، وتحويل حركة المجتمع الديني القرآني من الصراع ضد أعداء الدين إلى الصراع حول القرآن نفسه)) ص 206.

وهذا يُجلّيه تفسيرهم للمئات من آيات الله البينات التي حاروا فيها، وحيّروا الناس بها، ولم يتركوها على حالها فيريحوا ويستريحوا، بل راحوا يعبثوا بها شرقاً وغرباً، يميناً وشمالاً حتى قطّعوها إرباً إرباً.

نأخذ ثلاثة فقط للاستدلال على هذا العبث أو هذا التقطيع.

آية الوضوء: إنّ نص هذه الآية معروف للصغار والكبار من المسلمين، لمن يقرأ ولمن لا يقرأ، للعالِم والجاهل، للمفكّر والأمي ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكَعْبَيْنِ**﴾

يرى النيلي وبكل بساطة أن (أرجلكم) معطوفة على رؤوسكم، وأن الباء التبعيضية في (رؤوسكم) إذا انسحبتْ على

أرجلكم لابدّ ان تكسرها فتُقرأ (أرجلِكم) بكسر اللام، وحتى لو بقيت مفتوحة أو هكذا جاءت على ألسن القراء – كما قالوا– فهي مفعول به لكلمة (أمسحوا)فتصحّ القراءة ويصح المسح، وبالتالي يروح النيلي متسائلاً، كيف عَطف المسلمون (أو معظمهم) كلمة (أرجلكم) هذه على (وجوهكم وأيديكم) ففُتحت لكي تغسل، وإنّ التأخير جاء لترتيب الوضوء ليس إلاّ ولكي ينتهي بغسل الرجلين بدل مسحهما، ويصيرمَثّل هذه الآية مَثّل ذلك الأمير الذي أرسل رسالة إلى واليه في إحدى الولايات ثم كتب إليه قائلاً:

((يا فلان..... إذا وصلتك رسالتي هذه فاقتل زيداً وعمراً وأوصل سلامي إلى سعيدٍ وجعفراً))!! وبالتالي يحير هذا الوالي هل يقتل جعفراً باعتبارها مفتوحة ويعطفها على زيد وعمر، أم يبلغه سلام الأمير ويعتبر الفتحة جاءت سهواً وينجيه من القتل؟ وهنا لابدّ من القول: هل جاء القرآن الكريم هادياً واضحاً؟ أم لغزاً محيراً ؟ لينقسم المسلمون حوله بين من يؤيد الغسل ومن يؤيد المسح ومنذ ألف عام ونصف وإلى اليوم.

وليتَ المسألة وقفتْ عند حدّ القراءة والاجتهاد والاتّباع والتقليد واعتبارها مسألة مذهبية، وقراءة في التأريخ، ولكنها انتقلتْ إلى الأيديولوجية فصار ناكر الغُسل مشركاً، ومؤيد

المسح مبدعاً وكل بدعةٍ ضلالة، وكلّ ضلالة في النار وهكذا في العكس !!

هذا مع آية واحدة ونصّ واضح وكسرة أو فتحة واحدة في كتاب الله!! علماً بأن هذه الآية الكريمة عبادية وليست سياسية ولا تحمل مغزىً خطراً سواء كان المسلم يغسل أو يمسح.

نعم، إن المسألة غاية في البساطة، ولكن السياسيين المتمذهبين منهم صيّروها شِركاً وتبديعاً رغم أن (الماسحون) اعتبروا المسح مسالة تعبّدية ولا ضرورة ملحّة فيها للغُسل بأي شكلٍ من الأشكال شأنها شأن مسح الرأس، فيما صيّرها (الغاسلون) مسألة نظافة، وترتيب وضوء وبالتالي فمن تركها ليس (وسخاً) أو غير متعبّد أو متلاعب متأوّل يحب السهولة على حساب النظافة أو على حساب كتاب ربّ العالمين.

هذا من جانب فئة من المسلمين، أما الفئة الأخرى فراحت تعتبر المسألة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار – كما ذكرنا– والعياذ بالله، بل صيّر بعضهم هذه الآية سبباً لنزاعات وحروب، جرّت على بعض المسلمين خراباً ودماراً، وعلى بعضهم الآخر ويلاً وثبوراً.

آية الصيام: الآية الأخرى هي آية أو آيتا الصيام فبعض المسلمين يُصرّون على موقفهم في وجوب الإفطار في السفر

والمرض مهما كان هذا السفر أو المرض سهلاً أو يسيراً، فيما يصرّ آخرون على التخيير والرخصة. أما واضح القرآن الكريم فيؤكّد أن مسألة الإفطار في المرض والسفر إنما هي رخصة من رب العالمين رأفة بعباده وشفقة منه عليهم، فمن لا يشقّ عليه الصيام ويتحمل المرض والصيام معاً فليصم وفي ذلك خير ﴿**وأنْ تصوموا خيرٌ لكم**﴾ وإنه تعالى يريد يسراً بالعباد ولا يريد لهم العسر، وهاك النّص الكامل لهذه الآية أو هاتين الآيتين الكريمتين:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ* أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ*... فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ البقرة 183-185.

لاحظ التكرار في الآية القرآنية وحذف المقطع القائل ﴿**وأن تصوموا خير لكم**﴾ رغم أن النيلي يُصرّ هنا على الاصطفاف مع من يقول بوجوب الإفطار عند المرض والسفر ويغوص عميقاً لتبرير هذا الاصطفاف أو تفسيره (راجع كتابه).

وحين يُدخل البعض ما يسمّونه (سفر المعصية) لتبرير الإفطار تأتي المصيبة أكبر على الإسلام والمسلمين، وخاصة إذا استغلّ السياسيون هذه الثغرة وجعلوا منها بوابة لـــ (فتوحهم) الظالمة، وغزواتهم اللئيمة، أو قُل سبباً لاستجلاب الخراج و(جباية) الغنائم والغزوات.

أما أنا فأقول أن مثل هذه الاختلافات سهلة ويمكن استيعابها من قِبل العقلاء ولاتشكّل خطورة على مصالح الناس ولا تصطدم بالعدالة وتوزيع الثروة والسلطة، ما دامت في إطار العبادات والعلاقة مع الله، اي بين العبد وربه، ولكن الخطورة الحقيقية تكمن فعلاً في تفسير الآيات التي لها علاقة بالمصالح العامة للمسلمين وتمسّ حاجات الناس المباشرة ومصالحهم الدنيوية من قبيل الحكم والسياسة وتوزيع المال والثروة والامتيازات.

آية الطاعة: ولعل آية (الطاعة) لله ورسوله وأولي الأمر هي من أكثر الآيات التباساً حين تُركت لآراء المفسّرين وأهوائهم واتجاهاتهم المذهبية.

تقول الآية الكريمة بشكل جليّ وواضح:

﴿**أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ النساء59. إذ فَصَل تعالى هنا بين طاعة الله وطاعة الرسول، وجمعَ بين طاعة الرسول وأولي الأمر. ولم يُتم المفسرون الآية

أو يقرأوا ما بعدها، بل اكتفى الكثيرون منهم بذلك وخلطوا جميع هذه الطاعات ووضعوها في سلّة واحدة حتى وصلت الكارثة أن تصير طاعة ولي الأمر كطاعة الله ورسوله بلا فرق. والأنكى من ذلك أن يصلوا بمصاديق أولي الأمر إلى صدام حسين وشاه ايران والقذافي وقبلهم يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان والسفاح والمنصور، وآل فلان وآل علان من المجرمين والمارقين ممن لا يعرفون الله ولا يعرفون رسوله. والأكثر كارثيةً ونكايةً من كل ذلك حين يقوم هؤلاء المفسرون عن عمد أو غير عمد بإهمال الآية التي بعدها وعدم قراءتها في السياق نفسه والتي تقول بوضوح كامل أيضاً ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ**﴾ أي أنها لم تُضف (أولي الأمر) هنا فتجعل منهم الخصمُ والحكمُ.

هذه هي دقّة الآية، وهذا هو نصّها كما جاءت في كتاب الله ولكنْ أنظر كيف فعل العلماء والمفسرون واللغويون في تبضيعها والعبث بها كما قلنا ومما لا نستطيع قوله، حتى أسعفنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حين قال: ((قاتلتُ مع رسول الله على التنزيل وأقاتل (المنافقين) اليوم على التأويل)). والعبث هو هو كما انتزعوه تأويلاً أيضاً من القرآن الكريم.

هاك مثالاً واحداً على هذا العبث، ولاحظ كيف خلطوا عِلْم الله مع عِلْم الراسخين في العلم وجعلوه علماً واحداً عبر

التصرّف بنقطة هنا أو حرف عطفٍ هناك، كما في الملاحظة التالية:

آية الراسخون في العلم: ففي إشارة لافتة إلى الآية القرآنية الكريمة: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ**﴾ آل عمران 7. والتي أعاد المرحوم النيلي قِراءتها، حيث وجد الرجل فيها شيئاً وكأنه دُبّر بليل ومُرّر في غفلة من الزمن على جميع المسلمين، الأمر الذي شوّش عليهم دينهم على امتداد قرون، ولم يلتفت إليه إلا ثلة قليلة منهم تمّ طمْس تفاسيرهم أو التعتيم عليها بقصدٍ أو بغير قصد.

يقول الرجل أن الآية يجب أن تُقرأ منفصلة حسب منهجه الهندسي للفظ القرآني كما وردت بنصّها المقدس. أي أن هناك توقّف واضح بعد كلمة لفظ الجلالة (الله). هذا التوقف تستوجب وجوده القراءة المتأنية والجديدة لهذه الهندسة القرآنية وكما يلي:

الآية تقول: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ**﴾ فقط وفقط، أما الراسخون في العلم فتكملتها هي:﴿ **وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ**﴾ لعدم وجود حرف عطف قبل كلمة يقولون. وهذا يعني أن تأويله من حق الله فقط وفقط، وليس لأحد غيره هذا الحق. راسخ في العلم أم غير راسخ. كل ذلك لكي لا يتعسّف من يزعمون الرسوخ في

العلم بتأويل آيات الله وتوظيف نصوصها حسب الأهواء والمشتهيات والمذاهب.

وهذا هو عين ما فعله المفسرون وما يفعلونه – مع الأسف الشديد– في تأويلاتهم المتباينة للعديد من آيات الله البيّنات على امتداد التأريخ، الأمر الذي جعل هذه التأويلات متضاربة لا يَركن إليها المسلمون ولا يثقون بها. وحين يأتون إلى السنّة ليعتمدوها مفسِّرة للقرآن، تراهم مضطرين إلى الانشغال بعلم الرجال وتوثيق الرجال، والابتعاد عن علوم القرآن، أي جعْل المسألة كلها بالمقلوب.

الأمر الأسوأ أن علم الرجال هذا نفسه أصبح علماً مشكوكاً فيه لكونه من العلوم التي ابتدعها الرجال أنفسهم، وهذا دور بطبيعة الحال. وفي أكثر الأحيان – كما يرى النيلي طبعاً– أن هذا العلم يخضع خضوعاً تاماً للاجتهادات المذهبية، فيوثَّق الضعيف لدى أصحاب هذا المنهج، ويُضعّف الثقة لدى أصحاب المنهج الآخر، فيصبح من هو صادق عند قوم، كاذب عند خصومهم، ويصبح الثبْت – كما يسمونه– عند جماعة مشكوكاً به عند جماعة آخرى، وبالتالي فأين تصبح الدلالة المنطقية على الوثاقة والضعف مع وجود هذا (الدور) أو (التسلسل)؟! اللهمّ إلا أن يكون صاحب الرجال ومن يروي عنهم يدّعي أنه ثقة في نفسه. راجع النظام القرآني ص 426.

هذا التعسّف في تأويل القرآن الكريم قاد إلى ما شرّق فيه المفسرون وغرّبوا، فابتعدوا كثيراً عن كتاب الله، وصار بديله

لديهم، ما بات يسمى التفسير العلمي، والتفسير الفلسفي، والتفسير التجزيئي، والتفسير التأريخي، والتفسيير الموضوعي وهكذا. أما حين ينسى المسلمون قرآنهم الذي لا تتجاوز صفحاته عدة مئات وينشغلون بتفاسير بلغت أعدادها مئات المجلّدات. فعليك أن ترى حجم الكارثة التي حلّت بالمسلمين اليوم وشاسع المسافة بين المسلم هذه الأيام وأخيه زمن الإمام الصادق (ع)، وكيف كان يفهم كتاب الله ويقرأه مرتاح الضمير والوجدان. أقول هل كان ذلك المسلم البريء يتساءل عن تفسير القرآن أم أنه يقرأه ويفهمه كما كان يقرأه ويفهمه إمامه – سلام الله عليه– وبدون تأويل وفقه ونحو وعلم رجال، فيكتفي بما يُفهم ويترك مالا يُفهم بلا جدل ولا مِراء ولا تعسّف ولا مماراة إلى وقته وزمانه الذي قد يأتي وقد لا يأتي وهو – كما قلت – مرتاح البال مستقر الضمير.

أما أن يَقرأ أو يؤوّل ويجعل من (التين والزيتون) الحسن والحسين مثلاً، ومِن (مرج البحرين يلتقيان) عليّ وفاطمة، ومن (الحمأ المسنون) ما تضارب فيه المفسرون ومازالوا، فهذا لا شأن له به، واذا قال قائل بشيء من هذا القبيل، فيكتفي بقول: (سبحان الله)، وإذا زاد فلا يزيد شيئاً على كلمة: لا أدري. وهذا هو نصف العلم إن لم يكن معظمه كما يقول المأثور.

العودة إلى المنهجية

ونعود إلى منهجية النيلي و(عراقيته) أي عفويته الحادة والمتطّرفة التي لا يكبحها موروث ولا يحدّها كابح، فتراه يشنّ حملة شعواء غير مسبوقة على ابن عربي، وخاصة في زعم الأخير أن الفكر والنظر لا يوصلان المرء إلى المعرفة وكيف ادّعى أن المعرفة يمكن الحصول عليها من الكشف والكشف فقط فيقول:

((لقد تناسى ابن عربي أن الفكر والنظر هما المحرّكان لفيض المعرفة وما من كائن أنعم الله عليه إلاّ وكان قبل ذلك مفكراً ناظراً مجّداً في التفكير والنظر)) – أصل الخلق وأمر السجود ص 306 – مستدلاً على هذا الرأي من عشرات بل مئات الآيات القرآنية الكريمة التي تشدّد على التفكّر والتذكّر والتدبّر والتعقّل.

ولم يفُت النيلي في اقتحاميته المعهودة أن ينزل جام غضبه على ابن عربي أيضاً حين ألقى الأخير باللائمة على شيخ النبيّين والمرسلين نوح عليه السلام حين زعم أن الناس نفروا منه لأنه دعاهم بالتنزيه مرة وبالتشبيه أخرى فاستفزّهم (فاستغشوا ثيابهم) زاعماً أنه (لو جمع بين الأمرين ودعاهم بالدعوتين لأجابوه).

نفس المصدر السابق ص 313. وهنا راح النيلي يندّد بابن عربي هذا قائلاً وبلا تردّد:

(كشف بن عربي قناعه وظهر المستور، وجعل لنفسه مرتبة وعلماً أكبر مما لدى شيخ النبيين والمرسلين) وأضاف:

((لقد حاول ابن عربي خداع الجماهير بمقولاته....)) في محاولة للوصول إلى تحقيق مراميه في اتحاد الحق والخلق، حسب فهم ابن عربي وتعبير النيلي الذي علّق أخيراً على إيمان ابن عربي بقوله:

((أي إله صعلوك هذا الذي يعبده ابن عربي وأمثاله.... وأقول: لا أعبد ما يعبدون ولا هم عابدون ما أعبد، وإني أكفر بإلهٍ هذه هي كلّ صفاته... إنه متغيّرٌ وفانٍ)).

وربما لا ألوم السيد النيلي على حدّته هذه ولكني كنت أتمنى عليه وهو المفكر العميق أن يكون أكثر هدوءاً، أو أقلّ انفعالاً كي لا يثير الغوغاء والرعاع وأشباه المتعلّمين ممن يتصيّدون في الماء العكر، ولا يستطيعون العيش إلاّ في أجواء الصراع، واصطياد الكلمات.

الجزمية والقطعية عند النيلي..

تطرّف أم إعتقاد؟

يقول النيلي مبدعاً ((أن الكفر موضوع (أخلاقي) وإنّ الشرك موضوع (إعتقادي))، ويقول في مكان آخر: ((إنّ الكفر من طبائع القلب وفعالياته، أما الشرك فهو من فعاليات العقل وحساباته)). ويضيف:

((ولذلك فكلّ خطأ يرتكبه العقل مع سلامة القلب مغفور، وكلّ عمل صالح يفعله العقل مع مرض القلب مرفوض))- راجع كتاب: **أصل الخلق وأمر السجود** ص 101.

ولهذا جاء النصان القرآنيان الكريمان: ((وما تعمى الأبصار ولكنْ تعمى القلوب التي في الصدور)) و((يوم لاينفع مال ولابنون الاّ من اتى الله بقلب سليم)).

وهذا هو سرَ إخراج آدم وإبليس معاً من الجنّة، مع تركْ الفرصة لآدم لتصحيح شركه أو خطأه، وإبقاء إبليس خالداً في النار لكفره، أي لعناده وكبريائه وظلمة قلبه. فغاية عصيان إبليس هي العصيان نفسه، أما غاية عصيان آدم فهي الطاعة أي طاعة عقله مع ما فيها من جهل وانخداع- راجع تفاصيل هذه الحكاية الممتعة في أصل المصدر وقصة البواب والموظف والوزير كما عرضها النيلي في كتابه المذكور.

وهكذا حتى يصل النيلي الغاية التي يريد تثبيتها، وخلاصتها:

(إن الله يغفر مابينه وبين العبد، ولكنه لا يغفر لما هو متعلّق بحقوق العباد بعضهم ببعض مالم يَغفر ويصفَح أولاً صاحب الحق) المصدر نفسه ص 111.

ولكنه، وعلى ما قلناه في المنهجية المتطرفة يروح يضرب مصداقاً صارخا من التأريخ على هذا (الكفر) ولكنه لايذكر مصادره مع الأسف مؤكّداً على أحقية صاحب الحق، فيقول بلا تردد وبجزمية صارخة:

((وأكاد أجزم وبناءً على تركيب الآية (آية الزجاجة والكوكب الذري) وهذا التطابق مع الواقع التأريخي، أن فاطمة الزهراء قُتلتْ عن سابق عمد وترصّد (أي كفر) وبصورة سرية جداً. وبعد رحيلها فوراً حُمل عليّ بن أبي طالب الى المسجد مع أربعة آلاف مسلّح (لاحظ) حيث أُمِر بإعلان البيعة لصاحب النبي في الغار وأول اثنين...)) نفس المصدر ص 136. (لاحظ كلمة أول اثنين هنا وهو ما سنوضّحه بعد قليل).

ولعلّ من غريب ما قرأتُه للسيد النيلي عن هذه الجزمية أيضا هو تأكيده على مخالفته لجميع المفسرين الذين يقولون أن (الظالم) في نصّ قوله تعالى. ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ**﴾ هو اسم للجنس ولايُقصد به ظالم معين مخصوص. في حين

يعتقد النيلي (إن هذا خطأ شنيع) – حسب تعبيره– ويرى أن الظالم اذا كان مفرد الظالمين (الجمْع) فقد تهدّم البناء الهندسي للقرآن، أو كما يقول ((هدّمناه على أنفسنا واستحالت معرفة أي تركيب قرآني مرتبط بهذه الألفاظ)). (النظام القرآني ص)61 ويضيف بلا فاصلة:

((إن (الظالم في المنهج (أي منهجه هو (منهج النيلي المسمى بـــ الحل القصدي)– المؤلف) هو فرد مخصوص واحد، وهو مدلول يدلّ عليه اللفظ الذي ورد بصيغة المفرد المعرّف بـــ ألـــ التعريف، وأُطلق عليه هذا المعنى لأنه الظالم الحقيقي، والمؤسس الأول للظلم على مرّ التأريخ)) الى أن يقول: ((فكما أن الرسول معلوم، وهو فرد واحد، فكذلك الظالم هو فرد واحد معلوم)) ويعني به الخليفة الأول أبوبكر الصديق.

ويروح أكثر من ذلك متقحّماً هذا الطريق الوعر عبر تفسيره الغريب. اللافت لآية الغار وإعادة قرائتها بشكل لم يسبقه فيه أحد. إذ يقول ما نصّه: ((نضطر للإفصاح لأول مرّة أننا نقوم بذلك وفق منهج مختلف كلياً عما هو متعارف عليه في التفسير)) ويضيف:

((هذا المنهج لا يمكننا الآن أن نكتشف (ويقصد نكشف) عن قواعده وأصوله ومكوّناته، ولكنك سترى واحدة من قواعده (فقط) والبالغة ما يقرب من أربعين قاعدة ستُطبق على الآية

المذكورة، وإنها ستؤدي الى الحصول على نتائج صادقة بدرجة يقينية، وهو فقط ما يخصّ هذه المسألة التي نحن بصددها)) كتاب (الوجه الآخر للشيخين) ص 98.

تلاحظ هنا إذن، أن الرجل (يجزم) و(يقطع) و(على يقين) و(درجة يقينية) وهكذا، ووفْق منهجه اللفظي طبعاً وليس منهج غيره. فلنتأمّل هذه المنهجية بشيء من الصبر في الآية القرآنية الكريمة التالية:

آية الغار: وحين يأتي الى تفسير الآية الكريمة المتعلّقة بصاحب الغار والتي جاء نصّها في القرآن الكريم كما يلي:

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا﴾

أقول: حين يأتي النيلي الى تفسير هذه الآية تراه يستخرج من ألفاظها آراءً وتفسيرات وضمائر لم يأت بها أحد من الأولين ولم يتكلم بها أحد من الآخِرين!! زاعما أن بإمكانه – حسب منهجه– تسجيل أكثر من أربعين ملاحظة ومن الألفاظ والألفاظ فقط.

يبدأ من أول لفظة (إلاّ تنصروه) إلى آخر لفظة وهي (كلمة الله)، فيروح متسائلا: لماذا جاء النص (نَصَرَه) ولم يأت نَصَرهما؟ ولماذا (أخرجه) وليس أخرجهما؟ ولماذا ثاني اثنين، وليس أول اثنين؟ ولماذا قال لصاحبه (لاتحزن) ولم يقل له (لاتخف) والموقف موقف خوف أكثر منه موقف حزن؟ ولماذا أنزل سكينته (عليه) وليس (عليهما) وهما إثنان وفي موقف واحد ؟ ومن هو الذي أنزل عليه هذا السكينة؟ في وقت قال ان الله (معنا) وليس (معي) وكيف أن (المعية) شيء، و(عليه وعليهما) شيء آخر!

وهكذا الى أن يصل الى (أيّده بحنود لم تروها) وليس (أيدّهما) وهما معاً في الغار، وانتهاءً بتفصيل كلمة (كلمة) وهل هي اسم أم مسمّى، وهل هي دالة على معنى أم مدلول؟! ليختصر حديثه في هذه الجولة المتعبة وبضرس قاطع، وبقاطعية لم يقلها أحد قبله، بقوله:

(... انّ الآية حجبتْ عن صاحبه (أي صاحب الغار) أربعة أشياء لا يُحجب مثلها عن المؤمن العادي، فضلا عمّن خرج مع رسول الله (ص) وهي:

النصر، فقال: فقد نصره الله ولم يشمله بالنصر في أول الآية.

والإخراج: اذْ عاد الضمير على النبي وحده- أخرجه الذين كفروا، وخروجه (أي خروج صاحبه) غير خروج النبي، (الأسباب ذكرها طبعاً في تفاصيل الجولة- المؤلف).

والتأييد: بقوله وأيّده ولم يقل أيّدهما.

والسكينة: بقوله أنزل السكينة عليه ولم يقل عليهما.

ليختتم حديثه بما أراد إيصال القارئ إليه عبر هذه التساؤلات والاستنتاجات وهو:

((والمحجوب عن النصر، وعن الإخراج، والسكينة، والتأييد، كافر)). وهو ما قلته أنه لم يقل به أحد من الأولين ولا من الآخرين، ولا حول ولا قوة إلاَ بالله العلي العظيم.

كل ذلك، في آية قرآنية لم يجرؤ أحد على تفسيرها أو فهْم ألفاظها بالشكل الذي طرحه وفصّله وألفتَ الأنظار إليه. (راجع التفاصيل في مظانّها لدى الكاتب).

ومع الخليفة الثاني كذلك

وحين يصل الى نهج البلاغة – الذي قيل أنه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق– تراه مرة أخرى يؤوّل ويفصّل ويشرِّح موضوعاً مهمّاً ونصّ آخر بنفس الطريقة وربما بأغرب منها!!

هذا الموضوع، أو هذا النص وردَ في نهج البلاغة زتحديداً في فقرة متعلّقة بالخليفة الثاني عمر بن الخطاب، قال فيها واضعها (أي ناسخ النهج وجامعُهُ الشريف الرضي....) أن الإمام علي (ع) قالها بحق الخليفة المذكور، وجاء نصّها كما يلي:

((**لله بلاد فلان، فلقد قوّم الأود وداوى العمد، وأقام السنّة. وخلفَ الفتنة. ذهب نقي الثوب، قليل العيب، أصاب خيرها، وسبق شرها، أدى الى الله طاعته، واتّقاه بحقه، رحل وتركهم في طرق متشعّبة لا يهتدي بها الضالّ، ولايستيقن المهتدى**)).(نهج البلاغة: الخطبة 223).

لا يمكن لأي قارئ لهذا النص إلاّ أن يفسره بأن فيه مدحاً للرجل وانْ كان فيه بعض الذم، وهكذا هم البشر ليس فيهم كاملاً، وإنما الكمال لله وحده، وكما ان الرجل رحل (نقيّ الثوب) ولكن فيه (عيباً)، نعم عيباً قليلاً وسبحان من لا عيب له

في دنيا البشر. السيد النيلي (رحمه الله) في أحد كتبه لم يستطع أن يقرأ هذا النص كما ورد في نهج البلاغة بحرفه ونصّه، أي كما جاء على لسان عليّ، وإنما قرأه على لسان (نادبة) كانت قالت هذا الكلام في عمر أثناء نعيها له وراح النيلي يناقشه بتحميل لا يخلو من تمحّل.

وحتى في هذه فقد وجد نفسه أنه لا يستطيع تحمّل مثل هذا الكلام في عمر وإنْ على لسان امرأة- فراح يؤوّل عبارات النصّ بشكلٍ عجيب غريب لايمكن لأحد مسايرته فيه. فـ (أقام السنّة) أي سنّته هو، وليست سنّة الله ونبيه، و(خَلف) الفتنة بفتح اللام صارت عند النيلي مشدّدة أي (خلّف) الفتنة. و(نقي الثوب قليل العيب) قالها(تقية لمداراة أصحابه) – أي أصحاب عمر- حسب فهمه –.

و(أصاب خيرها) بمعنى حصل على امتيازاتها، أي امتيازات السلطة بمصطلحاتنا الحديثة، و(سبق شرها) أي رحل قبل وقوع الشرور والفتن، وهذا ليس مدحاً ولا ثناء. و(أدّى الى الله طاعته) أي طاعته هو وليس طاعة الله، وهكذا (اتقاه بحقه).

أما العبارة الأخيرة (وتركهم في طرق متشعّبة لا يهتدي بها الضال ولايستيقن المهتدي) ففيها من الذمّ أكثر مما فيها من المديح، وهكذا...

نعم، لم يستطيع النيلي أمام هذه القراءة الصارخة، إنْ لم نقل غير المنصفة إلاّ أن يقوّل قائلها أو ينسِب إليه ما تصعب نسبته، و بخلافه يُخطّئ كل من قرأها خلاف قرائته أو فهمها غير فهمه فيقول:

((أما أنا فعجبي من الناس كلّهم، أنهم لم يفهموا هذه النصوص، ولم يصيبوا المراد منها بما في ذلك ميثم البحراني أحد شرّاح النهج من الشيعة حيث تحيّر فيها فيا للعجب!)) (كتاب الشهاب الثاقب في الرد على الناصب أحمد الكاتب ص 295).

الأعجب من ذلك كلّه والأغرب هو تأويله لعبارة (سبق شرّها) وكيف راح يقرأها- كما جاءت بالنص في نفس الكتاب وفي الصفحة التالية:

((نجا من شرّها، وفيه ذمّ أعظم لأن الرسل والمؤمنين جميعاً ليسوا بمنجاة من الشرور. كيف ؟ ومع مَن وقع صراعهم إذن؟ بل الأشرار أنفسهم ليسوا بمنجاة من شرور الدنيا.)) ويضيف:

((فيا للعجب من العقول التي لا تفهم هذا الكلام، فإنه لا يصحّ إلاّ إذا كان هو مصدر الشرور كلّها. فالمصدر بالطبع هو الوحيد بمنجاة منها لأنه هو ذاته شرّ محض)).

أظن أن مثل هذا التكلّف، المخلّ بتأويل النصوص، أو ليّها، هي التي خلقت للسيد النيلي أعداء كثيرون، لم يستطيعوا أن يحملوا الرجل بسببها على أي محمل خير، كما أنه لم يحملهم على ذلك، فصار ماصار، وجرى ما جرى مع الأسف، فخسرنا بهذه المنهجية النقدية المتطرّفة ما كان بالإمكان تعويضه بعمقٍ أكثر موضوعيةً، وجدل أكثر اعتدالاً قد يوصلنا في يوم ما الى قاسم مشترك، بدل أن نقف في المفترق وقد أعيانا النزف، وأجهدنا طعن الأسنّة والحراب.

أمثلة أخرى

هذان المثالان يمكن اعتبارهما نموذجين صارخين للمنهجية الحادّة والتطرّف الصارخ في اختراق المألوف، وقراءة النصّ قراءات خاصة لابدّ أن تنعكس على الآخر بردود أفعال أكثر حدّة وتطرّفاً بالتأكيد.

نعم، مثل هذا الفهم ثبّته المرحوم النيلي في كتبه وعليه وحده بالتأكيد وزر ماروّج له وأربك القّراء والناس به. إذْ من غير معقول أن يمرّ القرّاء على تفسيره لرأي أبي بكر مثلاً حينما سُئل: ((لماذا يا خليفة رسول الله لاتستعمل أهل بدر؟)) و جوابه (أي جواب الخليفة): ((إني أرى مكانهم ولكني أكره أن

أدنّسهم بالدنيا)) كتاب (الوجه الآخر للشيخين ص 16 منسوباً الى حلية الأولياء: ج2 ص 37 المكتبة السلفية وتعليق النيلي بالقول:

((إن الخليفة العادل يختار خيار الناس ليكونوا له عمالاً على الأمصار وإدارة شؤون الأمة...)) ويضيف:

((انّ هذا النص لايحتاج الى الكثير من الشرح. فهو اعتراف صريح أن ولايته ولاية دنيا لا دين فيها وإنما دنس)).

ألا يمكن القول هنا أن كلام السيد النيلي هذا فيه حدّة وتحميل حتى لو سلّمنا بأن في كلام أبي بكر مايوجب التوقّف والمساءلة والعتاب من زاوية عدم استعمال الأخيار و تسليط (غير الأخيار) عليهمّ!!

أمثال هذه القراءات وغيرها وردتْ في كتابه المذكور، وكان الراحل وضعها تحت عناوين صارخة و(مرعبة!!) لايمكن أن يتحمّلها قارئ يقرأ خليفة رسول الله قراءة أخرى، ومن هذه العناوين ما يلي:

((**أبو بكر يشرب الخمر في بدر، وينوح على قتلى المشركين**)) ص 22 و ((**أبو بكر يعذّب أعداءه بالنار مثل نمرود**)) ص 20 و((**عمر يشرب الخمر في خلافته** ص 26)) و ((**إعرابي يشرب من طلاء عمر فيسكر فيجلده عمر حدّ الشارب** ص 28)) وهكذا.

ولافتة أخرى وضعها تحت عنوان: نصائح عمر للخمّارين

نعم، ومن ((نصائح عمر للخمارين)) مثاً قوله ((**إذا خشيتم من نبيذٍ شدّته فاكسروه في الماء**)) ص33 رغم أن المرحوم النيلي جاء بهذه المعلومات من مدوّنات سنّية معتبرة إلاّ إنّ المسلمين أو بعضهم يتقرّفون من نصوصها هذه ولايقبلونها أو يقبلون بها على الإطلاق!!

هذه الجزميات والاعتقادات هي التي قادت السيد النيلي الى القول أخيراً أنهما أي الشيخين ((ما أسلما طوعاً ولا كرهاً، ولكنْ أسلما نفاقاً، إذْ انتدبت قريش رجلين يدخلان الاسلام ويُظهران الإيمان ويعملان بأمر قريش فكان الأول والثاني ذينك الرجلين)) الكتاب ص 50.

ولم يكتفِ بذلك بل راح يؤكّد أن الجماعة سقوا النبي السمّ وأنه سمٌ قاتل لن يفلت منه –كما قال لهم الأحبار صانعو السمّ، بعد وفاته– ولكي يتداركوا الأمر ويرتّبوا الأوضاع قبل انفلاتها راح عمر يصرخ ((أن محمداً لم يمت ومن قال مات علوته بسيفي هذا)) ولم تمرّ سوى ساعات حتى جاء صاحبه يصرخ هو الآخر: ((من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات)) وإنْ كان

النيلي لم يستطع إتمامها كما جاءت في النصوص التأريخية المعتبرة، اذ أتمها الرجل بقوله: ((ومن كان يعبد الله فإنّ الله حي لا يموت)).

بعدها عاد النيلي يُنزل جام غضبه هذه المرة على الأمة التي لم يستطع أن يمسك انفعاله حيال (غبائها) فسمّاها: (أمة غبية وحقيرة) ((أبتْ إلاّ أن تعبد الجبت والطاغوت، وتكون ألعوبة بيد اليهود الى آخر الزمان)) الكتاب ص 69. وأضاف ما هو أشدّ من ذلك في مكان آخر من نفس الكتاب الصفحة 241:

((إن الشيخين قتلا رسول الله بأمر اليهود الذين فشلوا في قتله في سبع محاولات سابقة أو أكثر)).

هذه المنهجية الحادّة لم تفارق النيلي أو قل لم يفارقها في عموم منهجه النقدي، وكأنه جُبل على ذلك، بل كأن الرجل شعر أنه يتحمل ما لا يُطاق أمام سلوكيات هذه الأمة و مواقفها تجاه أنبيائها وعظمائها و (قادتها) المزيّفين – حسب تعبيراته –، حتى بات لا يشعر أنه يبتعد كثيراً عن منهج نبي هذه الأمة الذي جاء رحمة للعالمين، ولكنهﷺ حين يشتعل غضباً سمعناه يقول:((لايخرج المهدي حتى يلعن آخِر هذه الأمة أولّها)) وقوله الآخر الأكثر غضباً:((ولايخرج المهدي حتى يكفّر بعضكم بعضاً ويتقلُ بعضكم في وجوه بعض)) الكتاب ص 71.

وإنصافاً للرجل يبدو لي أنه كان أكثر هدوءاً وأقل حدّة في مؤلفاته الأخيرة. مثال ذلك: تغيير رأيه في تفسيره لآية ﴿**الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا**﴾ فيقول أنه ليس مع أولئك الذين يقولون أن اليهود كالحمير، لأنّ الله تعالى أكبر من أن يشبّه الناس بالحمير، ولكنه كان قال في كتاب آخر حول نفس الموضوع مانصه:

((أما الذين حملوا التوراة (أي حُمّلوا القرآن) ولم يكونوا قادرين على حمله فهم حمير والقرآن لايُحفظ عند الحمير)) الكتاب ص 131.

مفارقة أخرى

هذه مفارقة. ومفارقة آخرى قال فيها ((إن علماء الشيعة عملوا بالتقية الى حدّ مقرف)) (لاحظ تعبير مقرف الكتاب ص 139) و أضاف:((إنّ شيعة جعفر بن محمدﷺ)) لم يعملوا بها الى حد التهور حتى شكاهم الإمام قائلاً: (وتعملون بالتقية حيث لا تقية، وتتركون التقية حيث التقية) ولكنه بعد عدة سطور ينسى ماقاله هنا فيقول: ((الشيعة قدّموا دماءهم ليقولوا الحقيقة، وعلماء السنّة قدّموا لنا الحقيقة وحقنوا دمائهم، قدّموها بلباس آخر ونجوا من الموت)) الكتاب ص 140.

ولعلّ أشدّ ما قاله النيلي في منهجيته هذه، هو تنديده بالفتوحات في زمن عمر أو ما سمّاه (سلب الأرض) وأن ((غاية عمر من فتح العراق وفارس إنما لتكون (حديقة لمروان) أو بستان لقريش)) حسب تعبيره... ولم يكتف بذلك بل أضاف وكأنه شفى غليله:

((نعم ان التهم الموجّهة للاسلام من الغرب: (أنه دين يتوسع بالقوة، صحيح جداً بفضل الفاروق ولكنّ الصفعة (تأتي) على وجه الغرب نفسه لأنه أستاذ الفاروق و معلّمه ومرشّحه للخلافة!! فالفاروق أول صهيوني في المشرق وأول مؤسس للدولة العلمانية وأول قائد ميكافيلّلي في التّأريخ)) الكتاب ص244.

هذه الحدّة أو هذا التحامل دفعا السيد النيلي للخروج من النقد الموضوعي للنص الى حدود تأويله بشكل عجيب غريب لايمكن للمتلّقي تقبّله بسهولة. مثال ذلك تأويله لحديث شريف نقله بن عساكر عن أنس يقول: ((حبّ أبي بكر و عمر إيمان، وبغضهما كفر)) وكيف أوّله قائلاً: نعم((إيمانٌ بمن؟ وبغضٌ بمن؟)) مضيفاً:((حبّهما إيمان بالجبت والطاغوت، وبغضهما كفُر بهما))!!

وهكذا تأويله الغريب الآخر لكلام أحد أئمة أهل البيت عليهم السلام حين سأل خليفة أموي عما يقوله في أبي بكر وعمر

فقال: ((**لقد كانا والله إمامين قاسطين عادلين وكانا على الحق وماتا عليه وسيجمعنا الله تعالى وإياهم في ساحة رحمته**)) وكيف راح يفسّر كلمات هذا التقييم بما هو عجيب غريب فعلاً مفادّه: نعم (إمامان يدعوان الى النار، وذلك (إشتقاقاً من لفظ الآية القرآنية ﴿**وجعلناهم أئمة يدعون الى النار**﴾، وقاسطان كانا لجهنم حطبا) إشتقاقاً من ألفاظ آية أخرى ﴿**وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا**﴾، و(عادلان) على سياق الآية الكريمة ﴿**الذين كفروا بربّهم يعدلون**﴾ و(كانا على الحقّ)، فكانا فعلا عليه لا له ولا معه، و(قد ماتا عليه)، أي توفّيا على ذلك المنهج. وقوله (يجمعنا الله وإياهم)، فعلى غرار قوله تعالى ﴿**يوم يجمعهم ليوم الجمْع ذلك يوم التغابُن**﴾ فيجازي كلاً بعمله، وهي ساحة حسابه ورحمته. الكتاب ص 165.

الكلام المباشر أكثر غرابةً

هذا عن التأويل الباطن الذي يحمل وجوه عديدة. أما الهجوم المباشر الذي لايتحفظ عن قول أي شي ولايتردد في استخدام أية عبارة فلدى السيد النيلي ماهو أعجب و أغرب.

نعم، كان يمكن للسيد النيلي أن يكون أكثر اعتدالاً لو أمسك غضبه وحاكمَ الآراء والمناهج، وليس الأشخاص والنوايا.

فبدل أن يقول مثلاً: إن الغرب هو مرشَّح الفاروق، أو أن هذا الغرب هو الذي علّمه الميكافيللية و يقصد المنهج الميكافيللي طبعاً: الغاية تبرّر الواسطة – كان بإمكانه القول: إن منهج المسايرة والترضيات وأنصاف الحلول، والاعتداد بالأنا والذات، والتساهل المفرط في أحكام الله وحدوده، واعتماد المنهج الميكافيللي القائم على تبرير الوسيلة الدنيئة للوصول الى الغاية النبيلة، كل ذلك يمكن أن يصل بالانسان الى مارتضاه قادة الغرب اليوم لمجتمعهم من تحلّل و ضياع، وإباحية واستهتار وفقدان أخلاق، مع مايُرافق ذلك من ترفٍ واسترخاء، وميوعة،أو قل ورفاهٍ محرّم لم يقُم إلاّ على حساب الشعوب المسكينة المستضعفة المغلوبة على أمرها.

هذا أولاً، و ثانياً: بدل أن يقول: "إن الفاروق أول صهيوني في المشرق وأول مؤسس للدولة العلمانية، وأول قائد ميكافيللي

في التأريخ"، وبهذا الشكل الاستفزازي الفاقع – وهو صاحب اللغة وسيّد المفردات – كان بإمكانه أن يقول: إن الخليفة عمر اتّبع منهجاً قومياً ميّز فيه بين العرب والموالي، مجتهداً طبعاً، مفضّلاً العرب على غيرهم عرقياً وإثنياً، بل كان جريئاً في تفسير بعض نصوص القرآن الكريم – حسب اجتهاده طبعا – مع وجود من هو أكثر أهليّة لذلك منه باعترافه، وهو الإمام علي(ع)، فخرج الرجل بتأويلات واجتهادات خاصة في مواضيع الزواج و النكاح مثلاً، وكذلك العطاء والفتوحات، والخراج، والمؤلّفة قلوبهم، وغير ذلك من الأمور التي أدّت الى الإفراط في الاجتهاد، وقادت الى إيجاد نظريات خاطئة ما كانت لتوجد لولا هذه الجرأة، والاجتهاد الذوقي، إنْ لم نقل المصلحي السريع المرتجل.

نعم، إن تأويل النصّ والخروج عليه أنتجَ منهجاً خطيراً، انتهى في العديد من مساحاته الى نتائج خطيرة على مستقبل الاسلام وخاصةً نظرية الفصل بين الدين والدولة، المتكيء على مايسميه السياسيون اليوم (استحقاقات السلطة) وسكوت النصْ.

أما الفصل بين طاعة الله و طاعة النبي والتجرؤ على المنهجية التعبّدية التي تميّز بين الطاعتين، والاجتهاد الذي سنّه عمر عبر تغييره بعض العبادات، وعبر سؤاله المتكرر للنبي: ((هل هذا منك أم من الله يا رسول الله؟)) فقد شجّع البعض على

عدم الاستسلام للنص، والإصرار على نفس السؤال كما هو إصرار الخليفة المذكور، الأمر الذي أدّى الى تخفيف المنهجية التعبّديه الإلهية الأولى، وتسطيح المنهجية المعرفية الثانية، اذْ صارت الأولى واجبة وتحدّيها كفر يوجب النار يوم الحساب، بينما الثانية مندوبة ومستحبة وليست واجباً وبالتالي لاتستوجب النار ولا العقاب. بمعنى: أن الانسان العامل بالأولى ينال الجنة والثواب الجزيل، بينما المتوقّف في الثانية، والمتسائل المشكك لايتحمّل عقاباً ولايدخل ناراً، حتى لو عصى وجادلَ وناكفَ، وأتعب النبي والمسلمين !!

هذه الانجرارات وغيرها في المنهج العمري – إذا صحّ التعبير – صُيّرت لها سقوف شرعية في ما بعد من قبيل: هذه فلتة، وتلك رؤية، وهذا تأويل، وذاك تفسير، وآخيراً هذا اجتهاد، و(تأوّل فأخطأ)، و صاحب الاجتهاد له حسنتان إنْ أصاب، وله حسنة حتى لو أخطأ، وغير ذلك !

وهكذا تضخّمت الاختلافات الناشئة عن تعدّد الاجتهادات وتقاطُع الرؤى، حتى انتهت المسألة الى الرأي والرأي النقيض، ثم الى الفتوى والفتوى المضادة، ثم الحكم والحكم المضاد، وأخيراً وليس آخراً الى التكفير والتكفير المضادّ والعياذ بالله. وهنا تسكب العبرات، بل سُكبت على امتداد العصور والأزمان.

النتيجة: إن الحلال صار حراماً، والحرام صار حلالاً، وصار الناس لايفرّقون بين المعروف والمنكر، بل صار بعضهم يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف، حتى وصلنا الى آخر الأزمان – كما قلنا سابقاً- حيث صار المنكر معروفاً، والمعروف منكراً، فحلّت الكارثة بأهل الأرض، ونزل غضب الله على العالمين، فصارت حروب تتبعها حروب، وكوارث تلحقها كوارث، وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يَظلمون، وما ربّك بظلاّم للعبيد.

آية الرجس: الغريب الآخر الذي اقتحمه النيلي في (تأويلاته) وبدون تهيّب أيضاً، هو تأكيده أن النظام القرآني لا يسمح بضمّ نساء النبي إلى أهل البيت وأن كلمة (أهل) لها معاني عُرفية ومعاني عقائدية، وابن نوح مثلاً ليس من أهل نوح ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**﴾ وإنْ كان نبياً من صلب نوح.

ومادام الكفر – كما يرى النيلي طبعاً- قد داخَل قلوب بعض النساء لأسباب فصّلها في كتابه، فإنه يرى أن الاعتباط اللغوي لم يلتفت إلى ذلك، وراح يفسر كلمة (عنكم) في آية التطهير وكأنها (منكم) ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾.

ويقول النيلي هنا:

(لأننا لو قلنا إن فيهم رجس لقال (منكم)، لا (عنكم) التي تعني (بينكم رجس لا فيكم)- أصل الخلق وأمر السجود ص 154-. ويضيف:

(إذن فالمخاطَبون (أهل البيت) هم مجموعة انضمّ إليها أفراد من الرجس تماماً كما أن ابن نوح كان من أهل نوح ولكنه خرج منهم بكفره، ولمّا قال له الله تعالى ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ**﴾ لم يسأله نوح الرجوع والتوبة لأنه فهَم إنه قد كفر بلا رجعة، وهكذا مع أهل البيت الذين اختصر النيلي تحديدهم بقوله:

((فقوله تعالى: ﴿ **لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ**﴾ إنما هو لإخراج أفراد يدخلون هذه المجموعة بحسب العرف العام، فيخشى على أهل البيت ضياع حقيقتهم لوجود هؤلاء الأفراد بينهم)) نفس المصدر السابق ص 156، لاسيما والقرآن يحتمل صدور الإساءة من بعض نساء النبي، بل أن بعضهن يمكن أن تأتي بفاحشة مبيّنة، كما في قوله تعالى: ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مبيّنة.....**﴾ وقوله الآخر عزّ وجلّ ﴿**وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً.....**﴾ وكيف تعامل ﷺ معهن في فترة من فترات حياته، بل كيف تعامل بعضهن معه، ومما لا يصحّ – كما يرى النيلي- أن يكنّ من أهلِ بيتٍ أذهب

الله (منهم) الرجس وطهرهم تطهيراً، وهكذا مما لم يفكر به أحد من المسلمين قبله ويتقحّمه مثل هذا التقحّم وهذه الجرأة !!

وربما نستطيع القول هنا أن النيلي كان بإمكانه أن يكون أكثر توفيقاً وتوثيقاً لو عاد إلى المصادر المعتبرة في التأريخ والحديث وخاصة الصحاح الستة وحاول التذكير بسيرة (أم المؤمنين) وما جرّته روايتها المرعبة عن النبي في موضوعة (رضاع الكبير) وكيف صُيّرت هذه الرواية مادة للتندّر من قِبل أعداء الإسلام على المسلمين، ناهيك عما ألحقته بسمعة الإسلام من خزيٍ وعار.

سمّ النبي

ولعلّ من أشدّ حملات النيلي تطّرفاً هو جزميته بأن النبي قد سُقي السمّ بعد حجة الوداع (من قِبل الخونة) – حسب تعبيره – الذين لم يسمّهم، وقولة النبي الشهيرة في خطبة هذه الحِجة بشأن علي: ((من كنت مولاه فهذا عليٌ مولاه.... اللهم وال من والاه وعاد من عاداه)) والتي أجمع على صحّتها المسلمون بدون استثناء! ولم يكتف النيلي بذلك بل امتدّ به هذا الفهم ليصل إلى يهود فلسطين اليوم مؤكّداً: (أن عملية تهجير اليهود إلى فلسطين لم يقم بها (بلفور) المسكين بالوعد المزعوم) مضيفاً:

(لقد حدث هذا التهجير وبالخطّة المتّفق عليها بعد رحيل النبي مباشرةً) – نفس المصدر السابق ص 233.

وإلى الحد الذي يَعتبر فيه عملية تحرير بيت المقدس بأنها كانت (واحدة من المسرحيات الجميلة) – حسب تعبيره–، ويضيف:

(عليك أن تقرأ فتوح الشام بالتفصيل والتدقيق لتعلم أن الحصار الذي استمرّ ستة أشهر وأدى طول المدة إلى ضجر العسكر وأوشكوا أن يدخلوا المدينة بدون أمر قد انتهى في آخر المطاف بظهور عشرة قسَس فقط بملابسهم الدينية، خرجوا من البيت وتمّ تحرير مدينة المقدس بعد خروجهم منها) نفس المصدر السابق والصفحة السابقة.

لم يتوقف النيلي في جميع حملاته عن منهجيته الصارخة وجرأته الحادّة، بل راح يواصل هجومه على الاعتباط وأهله وكل من وقف ويقف معه من الأولين والآخرين إلى قيام يوم الدين لأنه كما قال: (أساس المشكلة وهو المسبّب للفئات والمذاهب وهو سلاح النفاق والكفر، وهو يعشعش في كل الأوساط وله أنصار ومؤيّدون في كل الطوائف والملل، ويصطف معه الطواغيت والظالمون وعشاق السلطة والمال، وتجار السياسة والدين وقادة الأحزاب وزعماء الطوائف والمذاهب. (راجع كتاب: **نظام المجموعات الكامل** ص 5).

الهجوم على رجال الدين

وحين يأتي إلى رجال الدين يهاجمهم بكل أنواع الأسلحة الممنوعة وغير الممنوعة لأنهم – كما يعتقد – أسوأ الظالمين وأكثرهم عتوّاً وغروراً، فيروح يقول وبلا تحفّظ:

(وهنا ينخدع الناس، إذ يحسبون رجال الدين أبعد الناس عن الظلم بينما يعشعش الظلم الأكبر بينهم تحديداً. لأن هؤلاء لا يكذبون على الخلق ولا يظلمون مجموعة معينة وحسب، بل يكذبون على الله تعالى ويريدون أن يحلّوا بدلاً عنه في التشريع، وفي عين الوقت يستخدمون آياته ودينه ليشاركوه. فهم أظلم الخلق ويظلمون كل الخلق، وهم أجرأ الخلق على الله تعالى) ويضيف وبجرأة أيضاً وبلا فاصلة:

(ولما كان أهل العداوة للدين أو أهل الفساد أو الدعارة أو الاعتداء على الناس مكشوفين ومعروفين وهؤلاء على عكسهم لا يمكن كشفهم، فإن خطرهم أعظم وظلمهم أعتى. وهذا ما أثبته النظام القرآني في نصوصه المحكمة. فقد تساءلتْ ست عشرة آية عمّن هو أظلم هؤلاء؟ الجواب فيها جميعاً بطبيعة الحال: لا أظلم منهم....) مستدلاً بذكر آيات الله الست عشرة الدالّة على هذا الاستنتاج، ومنها:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ العنكبوت 68

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ....﴾ الزمر 32.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ الأعراف 37.

وهكذا دون أن يستثني أحداً منهم، مع أنه يعلم قبل غيره أنّ في رجال الدين من أهل الخير والصلاح ما يمكن أن يكون مثلاً كريماً لغيرهم من كل نماذج البشر الذين فيهم الصالحون وفيهم الطالحون. وهم بالنتيجة نفوس بشرية لا تختلف عن غيرها، ففيهم من يرتقي بالدين سلّم الكمال، وفيهم من ينحدر – بتوظيف نصوص الدين – إلى أسفل سافلين ﴿**ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها**﴾.

نعم، يمكن أن ينحدر بعض رجال الدين كما ينحدر غيرهم إلى مستنقع الطغيان، وإنّ الطغيان ليس فرداً محدّداً أو صفة محدّدة في فرد، وإنما هي حالة يتقمّصها شخص ما، فيبدأ بتعليم الناس أفكاره الخاصة ويحْملهم على الإيمان بها والدعوة لها مقابل تعاليم الله. وكما يقول النيلي أيضاً:

(ليس من الضروري أن يكون الطاغوت فرداً بل الأغلب والأعمّ أنه حركات يشترك فيها أفراد وجماعات كثيرة، ويقوم بالتنفيذ فيها أفراد ظاهرون بينما تبقى الجماعات بعيدة عن الأنظار) ويضيف:

(إنّ الطاغوت ليس في الجانب السياسي وحده من جوانب الحياة. فهناك طاغوت في الفكر وفي الفلسفة وفي الأدب وفي العلم الطبيعي. وهناك طاغوت في الدين وهو أشرس الطواغيت وأعتاها. مثلما هناك طاغوت في كل فنّ ونشاط عقلي له مساس بالمعتقدات والسلوك).- أصل الخلق وأمر السجود ص 175.

وفي التفاتة جميلة أخرى يرى النيلي أن الانتماء أحياناً يقود إلى حالة طاغوتية لأنه ينبع من حماية الذات أو الحرص على حمايتها وإنْ على حساب ذوات الآخرين ومصالحهم. وهذا ما نلاحظه عند المنتمين عندما تتناقص مساحات انتماءاتهم وينكمشوا من الانتماء للأمة إلى الانتماء للوطن ثم للمحافظة والقرية، وبعدها العشيرة والقبيلة نزولاً إلى العائلة التي تتحول بمرور الزمن إلى معبود تُلغى معه كافة المعبودات الأخرى. ويضرب مثلاً على ذلك بقوله:

(إن المجموعات الانسانية تميل ميلاً شديداً إلى الانتماءات المختلفة. وتدخل هنا العوامل النفسية بشكل حاسم، فالانسان يشعر بضعفه دوماً، وهو يحاول التخلّص من هذا الشعور عن

طريق الانتماء إلى مجموعة ما. ولكنْ غالباً ما يعدّد انتماءاته، لجهله بالفئة التي تؤمّن له الشعور بالقوة فتظهر (الأنا) من خلال المجموعات بصورتها التعددية.

فمثلاً أن المرء يتعصّب لكونه (أوربي) ولا يكفيه هذا فيتعصّب ضد الأوربي بكونه (يساري) أو (علماني) أو (مسيحي)، ولا يكفيه هذا فينتمي إلى مجموعة أصغر، (كاثوليكي) مثلاً، ثم يستخدم جميع الخصائص الضيّقة للانتماء على مستويات مختلفة. فالأنا يظهر ظهورات متعدّدة وحسب الطلب.. طلب المواجهة مع (الآخر) وكذلك الأمر في المشرق وفي أغلب بقاع الأرض) ويضيف:

(وقليلاً ما يفكر المرء أن هذه الانتماءات لا تفاضُل بينها، لأنّ (الأنا) منعزل وحيد وفريد، فهو غريب في عالم الأشياء والشخوص، وهو يرفض التزحزح عن أحد الانتماءات لأنه يريدها جميعاً.... فالتشدّد في الانتماء يجرّه إلى انتماء آخر.. وهكذا بلا نهاية ولا وصول إلى حالة الاستقرار) – أصل الخلق وأمر السجود ص 251.

التفاتة أخرى (من مات ولم يعرف إمام زمانه)

وفي التفاتة ذكية أخرى حول الحديث الشريف المعروف القائل: ((**من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة الجاهلية**)) أشار النيلي إلى نقطة بعيدة تماماً عن تلك التي يطرحها رجال الدين والمراجِع حول هذا الحديث. فهؤلاء يخصصون المسألة بهم، أي لابدّ لكل مكلّف أن يعرف مرجعه أو إمامه ويقلّده طبعاً في أعماله وعباداته، وبغير ذلك فلا تُقبل منه عبادة ولا يُقبل منه عمل مهما كان عمله ومهما كانت عباداته.

أما النيلي فيرى أن هذا الحديث (يقرّر صحته القرآن الكريم) – حسب تعبيره – (فمن لم يكن إماماً يكن تابعاً، فإن كان تابعاً فهو يعرف إمام زمانه سواء أكان إمام كفر أو إمام هدى، فإذا لم يعرف إمامه مات جاهلاً (ميتة جاهلية) أي ضالاً لم يتخذ موقفاً بين الكفر والايمان) ويضيف:

فالحديث لا يقرّر أنه يموت كافراً، بل ميتة جاهلية كما لو كان من قومٍ لم يُنذروا، ومن هنا سيدخل مع مجموعة الذين كفروا وإنْ كانت نواياه حسنة لأنه لم يقُم بمسؤوليته ويتعرّف

على أئمة ذلك الزمان في الكفر والهدى فيدخل في مجموعة الكفار من غير علم) – نظام المجموعات الكامل ص 21.

وبذلك لم يحصر النيلي معرفة الإمام بـــ إمام الهدى، فقد لا يتأتى للمكلّف أن يجد في زمانه أو في مقطع من حياته إمام هدى مبسوط اليد حاكماً. نعم، قد يجد مرجعاً يقلّده في العبادات والصلاة والطهارات، ولكنه قد لا يعثر على إمام يعتقد به ليقلّده في أعمال الجهاد والدفاع عن الوطن أو الموت في سبيل الله. ويضيف موضحاً:

(إن معرفة إمام الكفر في الزمان شرط أساسي لمعرفة إمام الهدى ومن ثم الإيمان) وبذلك يقطع الطريق على ما قد يزعمه هذا المكلّف من حيرة أحياناً فيلجأ إلى الله تعالى في هذه الحالة: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾ البقرة 256.

والسبب في هذا الشرط – كما يرى النيلي طبعاً – آتٍ من كون (الطاغوت هو إمام الكفر في كل زمان فهو قيادة الذين كفروا. ولذلك يتوجّب على كلّ من يريد الإيمان أن يشخّص الطاغوت ويحدّد أعضاءه أو عناصر أفراده (أو حزبه أو جماعته – المؤلف)، وإذا لم يفعل فهو متّبع له شاء أم أبى، رغب أم لم يرغب) – نفس المصدر ص 22،ويضيف موضحاً:

(فالذين كفروا هم مجموعة من مجموعات المغضوب عليهم حيث لا توجد مجموعة بإزائهم سوى (الطاغوت) الذي يمثّل قيادتهم الدائمة، ولذلك فإن (الذين كفروا) يدافعون عن الطاغوت ويمنحونه ولاءهم ويُقتلون من أجله ويقدّمون التضحيات في سبيله ﴿والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾ النساء 76).

وهكذا – يواصل النيلي – فإن المجموعات الصغرى والفرعية تجتمع عند المجموعات الكبرى وتنتهي بارتباطها بالقادة، وبالتالي فإن القادة هم الذين يحملون مشعل الهدى والظلال وبأيديهم بوصلة تحريك الشعوب إنْ خيراً فخير وإنْ شراً فشر، وعليه فعلى الناس فعلاً أن يعرفوا إمام زمانهم، لاحظ، وليس أئمة زمانهم، فالإمام واحد والقائد واحد والزعيم واحد وإنْ تعدّدت واجهاته ومؤسساته ورجاله، وهنا يتوقف النيلي أيضاً ليقول:

(ويتم حصر القادة دوماً بمجموعة أصغر، وكلما تقدّم المرء بدراسة النظام القرآني – نظامه هو طبعاً– اقترب أكثر من تحديد المجموعات بصورة أدقّ وأكثر تفصيلاً).

النيلي والأصوليون
والبحث الأصولي

لا أريد الوقوف كثيراً مع السيد النيلي حول هذا الموضوع، وأترك ذلك الى كتابه القيّم الموسوم بـــ **(البحث الأصولي بين الحكم العقلي للإنسان وحكم القرآن)**، ولكني أردتُ تجلية ما أسميته المنهجية الاقتحامية في الشخصية العراقية من خلال ما استظهرته من هذا الكتاب وغيره، والجرأة المفرطة التي تُستدرج إليها هذه الشخصية أحياناً وهي تعيش بين مطرقة الإرهاب الفكري وسندان المرجعيات السلطوية سواء كانت هذه المرجعيات دينية أو سياسية أو ثقافية.

افتتح السيد النيلي كتابه هذا بتمهيد معبّر لاتّقاء وجع المطرقة وسندانها المذكورين فقال:

((اختلف أهل الاسلام بشأن قدرة العقل على الحكم بحسن الأشياء وقبحها بين منكر لها كالأشعرية وعموم أهل السنّة، ومثبّت لها كالمعتزلة والشيعة. ونقصد هنا بلفظ (الشيعة) علماء الأصول بعد الغيبة، فليس منهم الأئمة الإثني عشر (عليهم السلام) ولا رواة حديثهم ولا متكلّميهم قبل عصر الغيبة، لأن أولئك لهم نظرية في المعرفة تختلف عن جميع النظريات الأخرى ولا علاقه لها بتنظير الأصوليين من جميع الفرق،

وسوف نحاول الكشف عن هذه النظرية وملامحها بعد تفنيد آراء الفرقتين في الحكم العقلي إن شاء الله..)) – الكتاب ص 35.

بعدها راح يفصّل في المسالة ويتنقّل بهدوء ورويّة بين تقاطعات المعقول والمنقول، وكيف أراد الأشعرية إلغاء هذا المبحث مع علمهم المسبق أن للعقل قدرة على الحكم بحسن وقُبح الأشياء، وأن المرء لا يمكن أن يؤمن بالرسول (ص) وكتاب الله ويعتقد بصحة دينه من خلال حكم عقلي، بينما يرى الأصوليون ما يسمى بالمستقّلات العقلية والملازمة للفروع لتخريج حجية العقل مقابل الحكم الشرعي، ولكنهم في الوقت نفسه رفضوا القياس والاستحسان العقلي لأهل السنة ظاهرياً علما بأن القياس هو الحكم العقلي وهو ذات الملازمة العقلية.

أما وجه (المخادعة) هنا كما سمّاها النيلي بجرأته وتطرّفه فهو كما وضعه في نصّه التالي:

((هل للأفعال حُسن وقُبح بحسب ذواتها ولها قيم ذاتية في نظر العقل قبل فرْض حكم الشارع عليها، أو ليس لها ذلك، وإنما الحسن ما حسّنه الشارع والقبيح ما قــبّحه..))

قال النيلي هذا الكلام بعد أن كشف (الخدعة) وقال:

((إن المظفر وعموم الأصوليين إنما أثبتوا الحُسن والقبح من العموميات الكبرى مثل حُسن العدل وقُبح الظلم)) وأضاف:

((وهذا لا إشكال فيه ولا ينكره عاقل لا من الأشاعرة ولا من غيرهم)).

ولكن المسألة تكمن في فروع هذا الحسن أو ذاك القبح، أي في مصاديقهما، كالحجاب والخمرة والقمار والزنا والقصاص والعقوبات وأمثالها.

وعندما جاء الى العقل، وما يعرفه النيلي وغيره عن الحجة الظاهرة والحجة الباطنة توّقف في تحرير آخر للمسألة قائلاً:

((ولكن الغريب مع كل هذا الكمّ الهائل من المحاولات في المسألة بين المذاهب وبين علماء كل مذهب فإنهم لم يُحدّدوا المقصود بهذا العقل بما هو عقل أو (عقل العقلاء)... وهذه كلها – كما يرى السيد النيلي – عبارات موهمة جرّته الى حدّيته وجرأته العراقية فراح يقول:

((وهكذا... ومثلما انتقل العلماء من العام الى الخاص (في الأفعال) انتقلوا من الأحكام القبلية إلى الأحكام التركيبية في مخادعة مشينة للقراء يؤسف جداً أن يقوم بها علماء ورعون وأتقياء مثلهم..)) الكتاب ص 40.

بعدها راح النيلي يكشف هذه المخادعة بدءاً باحتمال الخطأ في النقل، أو الخطأ في إدراك المنقول، واحتمال الخطأ في الحواس ذاتها، وأخطاء التعريف والخلط بين المدركات بعضها

مع بعض، ومعها أخطاء القياس وأخطاء العقل ذاته الذي يقع أحيانا في أخطاء جسيمة لا تُغتفر وخاصة عند الخلط بين التصوّر والتصديق، وإن كان لم يذكر هذين المصطلحين، واكتفى متندراً هو الآخر، ولا أقول مخادعا حين استعان بالمثل التالي:

((لو سألتُك أن تقطع ورقة الى نصفين وتضع إحداهما فوق الأخرى ثم تقطع هاتين مرة أخرى لتكون أربعاً، وتضعها بعضها على بعض وتعيد الكرّة أربعين مرّة، وسألتك: كم سيبلغ سُمك مجموعة الورق؟ فبماذا تجيب؟ لقد سألتُ هذا السؤال لعشرات الأشخاص بما في ذلك خريجو الجامعات فكان بعضهم يقول متراً وبعضهم يقول مترين وأطلب منهم أن يزيدوا الارتفاع ما استطاعوا وبما تقدّره عقولهم كأبلغ ما تكون، فكان أكثر من بالغ فيهم في تقدير السُمك أن زعم أنه سيبلغ سقف الغرفة! أما الحقيقة فإن السُمك سيبلغ مسافة أكبر من المسافة بين الأرض والقمر بأضعاف المرات على أقل تقدير علماً بأن سُمك الورقة نصف مليمتر مثلاً)).

ويضيف النيلي مؤكّداً على عدم قدرة العقل على استيعاب احتمال من هذا القبيل، فكيف به مع احتمالات أخرى أكثر تعقيدا؟ فيقول:

((فالذوات يرفضون حسب أحكام مسبقه راسخة عندهم أي تقدير كبير للسُمك فلا يعطون للعقل حرية إجراء الحساب بل يُصرّ بعضهم على خطأ النتيجة بالرغم من كونها مسألة رياضية (بل تجريبية – المؤلف) ولذلك يتم استقبال السؤال من قبلهم بصورة عشوائية وعلى ظاهره، ثم يجرون عملية قياس وإدراك وفق هذا الحكم المسبق متجاهلين عملية التضاعف. فكيف إذا كان للذات مصلحة ما في الحكم ؟ وكيف إذا كان الموضوع موضوع فكر لا موضوع أرقام ؟ هذا التساؤل هو الذي يربك المعادلة ويجعلها صعبة الفهم.

فالكفر والجحود موقفان أخلاقيان لا اعتقاديان بخلاف الشرك الذي هو موقف عقلي، ولذلك تسامح القرآن مع المشركين ﴿**وإنْ أحدٌ من المشركين استجارك فأجره..** ﴾ ولم يتسامح مع الكافرين. فإبليس مثلا كفر لا عن شكّ بوجود الخالق، ولكنه أبى واستكبر لأنه كان من الكافرين، أو هكذا يُفترض ان تُفهم الآية كما فهمها النيلي –﴿**إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين**﴾ البقرة 34.

وهذا يعني أن (الإباء) و(الاستكبار) تقدّما على الكفر. وهكذا – كما يرى النيلي– أيضا أنّ (كان) هذه يجب أن تأخذ وضعها الماضوي في التفسير كما جاءت في منهجه اللفظي، إذْ ليس الاستكبار هو علّة الكفر بل العكس، إذْ كان الكفر هو علّه

الاستكبار (أرجو مراجعة هذه المسألة بالتفصيل في كتاب النيلي ((أصل الخلق وأمر السجود))).

فالذين كفروا يعترفون بالربّ وبأنه خلقهم ورزقهم بَيْد أن كفرهم جاء بسبب رفضهم اتّباعه وحده.

وكما قلنا فالتوحيد مرتبط بالموضوع الأخلاقي قبل ظهوره على صورة العقائد..، وعلى هذا فالشرك وليد الكفر، ولذلك يُفترض بالمؤمن أنْ يتوقف كثيرا للتأمل في واحدة من عجائب كلمات الإمام الصادق عليه السلام التي قال فيها ((**الكفر أقدم من الشرك**)).

ويمكن القول هنا أن الكفر عناد ومكابرة وإصرار على الخطأ، بينما الشرك جهل وغباء واستقلال عقلي خائب. بمعنى إنّ الكفر ظُلمة في القلب واستكبار على الله، وتعالٍ على الحق الواضح الصريح، بينما الشرك جهل بالله وطاعة لغيره واستئثار بمصلحة تافهة وتأكيد ذاتٍ مريضة.

ولعلّ هذا هو محور ما يريد النيلي تجليته في جوهر نظريته حول العبودية والذات، والذي وضّحه أجمل توضيح في حديثه عن هدى الله وموقع الذات، واستحالة تحولها من الكفر الى الشرك مع احتمال حصول العكس ﴿ **ولما زاغوا أزاغ الله قلوبهم**﴾ كما إن الاعتراف بالعجز المطلق عن (معرفته) سبحانه مسألة طبيعية، وإن كلمة الله أكبر لا تعني أكثر من أنه سبحانه

أكبر من أن يُعرف، واذا عُرف أصبح كسائر الأشياء والمخلوقات – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وعليه، يجب التعاطي مع هذه المسالة واعتبارها كمسالة المعصوم – مع فارق التشبيهين – لا سيما حين يحاول بعض الناس الردّ على المعصوم، فيقول لهم المعصوم ((**لا تردّوا عليّ كلامي بل ردّوه لي إذا لم تعلموا المراد منه**)) وهو بذلك يريد إلغاء الحكم المسبق واجتثاثه واستبداله بفهمٍ جديد يبذله المريد جاهداً لمن يريد أن يفهم منه، وليس لمن يتصور أنه فهم كل شيء ويعتقد أنه لا فهْم لأحد فوق فهمه حتى الله تعالى والمعصوم، وإنْ لم يكن باللسان فبالفعل والممارسة.

وعلى ضوء هذا البناء يصبح أكثر الناس فعلاً **(مشركون)** و**(لا يعقلون)** و**(يجهلون)** و**(لا يسمعون)** و**(لا يؤمنون)** و**(فاسقون)** وهو ما أورده القرآن الكريم في مجموعة كبيرة من الآيات نذكر منها ما يلي:

1-﴿ **وإنْ تُطع أكثر من في الأرض يُضلوك**﴾ الانعام 116

2-﴿**بل جاءهم بالحق، وأكثرهم للحق كارهون**﴾ المؤمنون70

3-﴿**فأبى أكثر الناس إلا كفورا** ﴾ الفرقان 50

4-﴿**ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون**﴾ يوسف 40

5-﴿**بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون**﴾ الأنبياء 24

6-﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ النحل 38 (مكررة)

7-﴿**وأكثرهم لا يعقلون**﴾ المائده 103

8-﴿**ولكن أكثرهم يجهلون**﴾ الأنعام 111

9-﴿**بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ لقمان 25 (مكررة)

10-﴿**فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون**﴾ فصلّت 4

11-﴿**وما يتّبع أكثرهم إلا ظنا**﴾ يونس 36

12-﴿**وأكثرهم فاسقون**﴾ التوبة 8

13-﴿**وإنّ كثيراً من الناس لفاسقون**﴾ المائدة 49

14-﴿**ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون**﴾ المائدة 32

15-﴿**ولكنّ أكثرهم لا يشكرون**﴾ النمل 73

16-﴿**ولكنّ أكثرهم لا يؤمنون**﴾ الرعد 1

17-﴿**وإنّ كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون**﴾ الروم 8

وهكذا، والأمرّ من ذلك أنك تراهم يقرأون هذه الآيات ليلاً ونهاراً ولكنهم لا يرعوون، بل أنهم ينظرون إلى وجه النبي وهم

غافلون، وكما يصفهم خالقهم: ((وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون)) الأعراف 198.

ولا أدري، لعل السيد النيلي ومن هذا الاستعراض، أو هذا الاستظهار لهذه الآيات القرآنية الكريمة بالتحديد، يريد أن ينحى هذا المنحى الحادّ مستحضراً كلمة الإمام أبي جعفر التي نقلها عنه كامل التّمار في الكافي والتي تقول:

((الناس كلّهم بهائم – ثلاثاً – إلا قليل من المؤمنين، والمؤمن غريب ثلاث مرات)) – حديث كامل التّمار المرقم (2324) من الكافي الكتاب (122).

وبما إن الناس هكذا – حسب النيلي – فلا يصحّ أن يُصدروا حكما أصوليا ينْسبونه إلى الله تعالى أو الى عقول راجحة يزعم بعضهم أنهم حمَلَتها أو أصحابها.

ولما كان المعصوم نفسه في حديث سدير الصيرفي في الكافي ليس لديه أكثر من سبعة عشر مُريد أو بعدد الجداء التي كانت معه فكيف مع غيره ممن يمنحون أنفسهم حقّ الإفتاء ويكونوا حجج الله، وبالتالي من أين يأتي العقل العام الذي يستعين به الأصولين في محاججاتهم العقلية والناس على هذه الشاكلة ؟! علما بأن الشيعة يومها كانوا مئات الألوف وليس عشرات الألوف.

آية النفر: وحين يأتي النيلي الى النفر والتفقّه في الدين يقرأها قراءة مغايرة لما ألِفه الفقهاء الأصوليون، فيقول ((إن الآية الكريمة ضدّهم في جميع الوجوه لأنهم ظنوا أن الطائفة النافرة للتفقّه أسقطت الوجوب عن الفرقة بينما مراد الآية هو عكس ذلك تماماً، وهو أن النافر يجب أن ينذر فرقته بوجوب النفرة والتفقّه وإن على العارفين والقادرين تعليم غير العارفين ونقل التفقّه إلى العاجزين وغير القادرين بل هو إطلاقٌ جاء له (أعقل العقلاء) عزّ وجل بلفظي (فرقة وطائفة) قصداً لكي لا يستثني منه أحد من الناس. إذ ترجع الطائفة المتفقّهة لتعليم بقية الفرقة وهكذا، علماً بأن اللفظين اخترا هنا لإيضاح التداخل، إذ يمكن أن تكون الطائفة أصلاً أكثر عدداً من كل فرقة على انفراد...

تعال معي نقرأ نص الآية الكريمة:

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ التوبة 122.

ولما كان المؤمنون قلّة قليلة جدا بالمواصفات التي وضعها القرآن (حسب أكثرهم) والتي حددها المعصوم في عدة أنفار، تصبح هذه (الطائفة) أقلية قليلة جداً ولا تصدُق إلاّ على أفراد معدودين لهم صفات عالية جداً، فهم فقهاء أصلاً وقد نفروا،

وإنما ألقى باللائمة على الباقين لينفروا. فتأمل الآية جيداً (الكتاب ص 133).

كما إن مسألة (النفور) هذه ((تخصّ الدين كل الدين ومنه العقائد بل هي الأصل، فإنها إذا فسدت لم تنفع العبادات وإذا صلُحت العقائد صلحت الأخلاق وقبلت العبادة وأُنزلت الأرزاق (وهكذا) فإن الناس في أزمة عقيدة دوماً وليسوا في أزمة معرفة للمناسك)) والطقوس.

ويأتي النيلي الى قمة قطعيته وجرأته ليقول: إن ما زعموه عن عدم ضرورة نفرة جميع الناس للتفقه لم يقل به أحد وهو يسقط عن الناس لكونه واجبا كفائيا إذا قام به أحدهم.. نعم، هذا مع التفّقه، ولكن المسألة – كما يراها النيلي – هي الدين ((والدين ليس فيه اختصاص خلافا لكلّ علمٍ آخر لأنه رأس كل العلوم وهو رحمة للعالمين كافة)) ويضيف:

((نعم الجاهل يتعلّم من العالم وواجب العالِم تعليم الجاهل ولكنْ ليس من الدين في شيء بقاء العالِم على علمه ثم إبراء ذمة الجاهل على جهله)) ص 132.

بعدها يفاجئ النيلي علماء الأصول الذين يزعمون هنا أنهم لم يمنعوا أحدا من التفقّه، قائلا لهم:

((ونسأل الآن علماء الأصول أين هو العقل الجمعي (الذي يتذرعون به طبعا) الذي يحكم بحسن وقبح الأفعال، (إذْ) لم يبقَ – حسب فهمه طبعا – من الخلق الاّ أقلية من الذين آمنوا وأنزل إليهم الكتاب لعلّهم يعقلون فهم غير مكتملي العقول – ما خلا المؤمنين –) وعليه – والكلام للنيلي طبعاً – ((إذن يحتاج الأصوليون الى تحديد جماعة العقلاء من خلال استثناء كل الفئات المذكورة في الخطاب. واذا فعلوا ذلك لم يبق إلا المعصوم وهو موضوع البحث ومصدر التشريع اذ هو الواسطة لنقله الى المكلّفين فينتفي موضوع البحث)) هنا.

وهكذا يستمر النيلي يحاجج ويجادل، فيحمل على الأصوليين الذين (لم يأمروا) مكلّفيهم بالتفقّه وأبرأ مرجعهم ذمتهم بعد أن أفتاهم بأن يقلّدوه، فقط، وكفى الله الناس شرّ (الخطأ) وتبعات (الخطيئة) !!

وخُدع المكلّفون بذلك وربما خَدعوا أنفسهم لأنهم وثقوا به وسلّموه دينهم وصار حالهم كحال ذاك البائس الخائب الذي قال: (ذِبْها براس عالِم واطلعْ منها سالم) مختـــتماً هجومه هذا بقوله:

((فيا للعجب من قوم تقاسموها ! بعضهم مُنع من الاجتهاد، حيث أذن به الأربعة فقط (أي أصحاب المذاهب الأربعة) ! سبقوا وأوجبوا على أتْباعهم اتّباعهم ! وبعضهم أذنَ به ومنع الغير من التفقّه (أو قل حال بينه وبين ذاك) بإبراء ذمته عند

اتّباعه بعدما جعل التفقّه (أصولاً) غير الخطاب، موحين بانفرادهم بفهمها دون سائر الناس !)) الكتاب ص 131.

ومع إن كل عمل من أعمال الناس كفائي إلاّ الدين فهو لكل الخَلق، ولأن الدين هو الخُلق ((فهل ترون أن الأخلاق واجباً كفائياً ؟ وهل يتوجّب على البعض أن يكونوا على خُلق فيسقط وجوب الأخلاق عن الآخرين)) بينما يقول المعصوم ((إنما بُعثتُ لأتمّم مكارم الأخلاق ؟)) المصدر نفسه ص 130.

ولا أظن السيد النيلي يريد بعد كل هذه الحمله الشعواء على البحث الأصولي إلاّ أن يعود الناس الى ما أسماه (الخطاب)، ويقصد النص و(المعصوم)، وبغيره فلا دين ولا تفقّه ولا عقل ولا تّدبر ولا مكارم أخلاق، ويضرب مثلا على ذلك بقوله:

((ألا ترى الناس في العرف كيف يفعلون ؟ إذا تكلّم الأمير أو الملك وقال له واحد من أدنى الرعية: هذا صحيح ! لاموه وعنّفوه وعدّوه بليداً، إذ ليس من الأدب ممن في مقامه أن يصحّح للملك، إذ لا معنى له، إلا اذا لم يعجبه قول الملك ولم يعقله، وفي مرة أخرى يقول: هذا خطأ كما قال في المرة الأولى: هذا صحيح: فكيف إذا حكم بالسيف ومع من ؟ مع الملك الحق ؟)) الكتاب ص 138.

الحيرة في فهْم السيد النيلي:

ولا أريد هنا في الحقيقة الدخول في مساجلة إقناعية مع السيد النيلي، رغم تقديري واحترامي لاستنتاجاته واستظهاراته وفهْمه، ولكني أرى (أنا الآخر) حيرة في فهمه هو (رحمة الله عليه) إذْ كيف يستطيع المرء فهم الدين حتى كـ (خُلق كريم) من خطاب المعصوم، فيما الخطاب نفسه حمّال وجوه – كما يعلم النيلي –، والمعصوم غائب ؟ واذا كان علم الرجال قد سقط في فهم النيلي نفسه فمن أين أخذ النيلي نفسه هذه الكلمات والنقولات والمأثورات ؟ وإذا كان العقل قاصراً والعقل الجمعي غير مبْرئ للذمة، فأين يذهب المكلّف عند حيرته وعدم يقينه ؟! واذا لم يكن العقل مُسعِفاً فعلاً في تحديد الحُسن والقبح في التفاصيل، فماذا عن المستحدثات التي توقّف عندها الخطاب، أي سكت، ولم يوضّحها؟ ثم ألا تكفي فطرة المؤمن دليلاً على حسن ما يفعل وقبح ما لا يفعل؟ وإذا كان المؤمنون قلّة كما قال المرحوم النيلي، أفلا يجدر بهؤلاء القلّة تعليم غيرهم؟ ولكن كيف إنْ لم يقدروا على ذلك أو قل لم يُتسنّ لهم، أو ما ذنبهم هم هنا؟ وما ذنب الذي لم يعرفهم ولم يرَهم؟ وإذا كان التفقّه في الدين من حصة المؤمنين فقط فكيف بالذين لم يبلغوا بعد هذه

المرتبة الرفيعة ؟ وما هو تكليفهم في الفترة المحصورة بين الجهل والتفقّه ؟!

كل هذه التساؤلات وغيرها يمكن أن تجعلنا أكثر تسامحاً مع الأصوليين من هذه الشدّة والصرامة التي واجه الرجل بها خصومه، وأنزل عليهم جام غضبه وسخطه، رغم إني أظن أن الله تعالى يقبل من (أكثر) الناس ماهم عليه ما داموا بذلوا وسعهم في معرفته والتقرّب إليه، إنه غفور رحيم، ودود رؤوف لاسيما وهو تعالى القائل: ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ...** ﴾ النحل: 61. و﴿**لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ**﴾ الكهف: 58 .

فإذا كان تعالى صفح عن ظلمهم او بعض ظُلمهم فهلا يصفح عن مشتبهات إيمانهم ومعتقداتهم وتأويلاتهم ؟ إلا إذا كانت عن عمدٍ وعنادٍ وسبق إصرار.

ثم ألا يمكن أن تكون هاتان الآيتان مسكّنتان لمنهجية النيلي الفائرة، ومهدّئتان لحملاته القاسية على خصومه لاسيما وهو يخاطبهم هذه المرة بقوله:

((فيا معشر الأصوليين: ذمّوا أنفسكم لحظة. قولوا مرة: ربنّا لا علم لنا إلا ما علّمتنا كما قالت الملائكة، ولا تدّعوا أنكم أفضل من الملائكة لعل حسَنة تُكتب لكم هي خير من عبادتكم وفق الملازمة العقلية)) البحث الأصولي ص214.

ألا تسري هذه النصيحة الكريمة على المرحوم النيلي نفسه وعلينا وعلى جميع (المؤمنين) ممن يقولون كل يوم: ﴿**رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ**﴾ البقرة 286 ؟! ألا يتقبّل الله من كثير ممن كانوا وما زالوا يقولون على لسان أنبياء الله وأصفيائه: (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي.. **ذنبي**) ﴿ **إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾، ﴿ **رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ**﴾ ؟!

وفي هؤلاء أو بينهم من الأنبياء – عليهم السلام – بل فيهم سيد كبير من سادة المعصومين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان يقول ((**أعينوني بمقولة حق ومشورة عدل فإني في نفسي لستُ بفوق أن أخطئ**)) ومثله معصومون يلوذون برحمة الرب الكريم ويتوسّلون إليه بتضرّع ودموع: ﴿**ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا**﴾. ﴿**رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ...** ﴾.

كم كان جميلاً فعلاً أن يُبقي المرحوم النيلي الباب مفتوحاً للتائبين ممن قال هو نفسه في أحدهم قولاً جميلاً أورده على

سبيل الاستشهاد مسنَداً عن الحسن بن الجهم (وهو من الرجال طبعاً) قال سمعتُ أبا الحسن عليه السلام يقول:

((إن رجلاً في بني اسرائيل عبدَ الله أربعين سنة ثم قرّب قرباناً فلم يُقبل منه. فقال لنفسه: ما أوتيتُ إلاّ من قِبلك وما الذنب إلا لك. قال: فأوحى الله إليه: ذمّك لنفسك (هذا) أفضل من عبادتك أربعين سنة)) الكتاب ص214.

ألم يكن في الأصوليين واحداً مثل هؤلاء على امتداد تأريخهم؟ ألم يكن فيهم مخلصون ولكنهم (لا يعلمون، ويجهلون، ولا يعقلون، و(مشركون)؟ ألم يقل السيد النيلي أن للمشرك باباً إلى الهدى فيما تعالى يقول: ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً إلا أن يُشرك به﴾ ؟ لماذا نقل السيد النيلي حديثاً قدسياً استدلّ فيه على رحمة الرب الكريم بعباده رغم (أكثريتهم) الجاهلة (ولو لم يكن في الدنيا إلاّ واحداً من عبيدي مؤمن لاستغنيتُ به عن جميع خَلقي ولجعلتُ له من إيمانه أنساً لا يستوحش إلى أحد) ؟!

وفي حديث قدسي آخر:

(ولو لم يكن من خَلقي في الأرض في ما بين المشرق والمغرب إلاّ مؤمن واحد مع إمام عادل لاستغنيتُ بعبادتهما عن جميع ما خلقتُ في الأرض ولقامت سبع سماوات وأرضين بهما) ؟ الكتاب ص210.

نعم، إن هذه المنهجية الصارخة تنفع مع المعاند المكابر الذي يأتيه الهادي ويتحدّث إلى المعصوم ولكنه يردّ كلامه عليه لا له، ويفهم الخطاب ولكنه يكابر ويصرّ ويعاند ويؤوّله بالمقلوب، إلاّ إنها لا تنفع مع ذاك الذي بلغ ذروة علمه ومنتهى فهمه، ولم يأته هادٍ، ولم يعايش معصوماً، ولا اطمأنّ لرجاله، ولم يفهم تفاصيل الخطاب الحمّال للوجوه ؟!

ويستمر النيلي في محاكمة الأصوليين:

أما أولئك الأصوليون الذين يصفهم النيلي بأنهم يتذّرعون بعدم ورود النصّ في بعض الأحكام مما يسوّغ لهم الاجتهاد وإصدار الحكم العقلي، ثم اعتبار هذا الحكم ذاته الحكم الشرعي من خلال الملازمة بين حكم العقل وحكم الشرع والتي هي حكم عقلي آخر، فيروح مواصلاً حملته عليهم عائداً بالمسألة إلى بداياتها بعدَ أن حار في واقعها وحيّرنا معه.

نعم، راح النيلي هنا يقول: (اختفى فيها (أي في هذه المسألة) الحكم بما أنزل الله وظهر الفساد في البر والبحر وحُرمت أمم كثيرة من وصول نور الاسلام الذي يجمع المِلل ويؤمن بكل الرسل والكتب المنزّلة واختفى تصديق القرآن....) وكل ذلك – حسب النيلي طبعا– هو نتاج للإنحراف الأول الذي

أُبعد فيه القائمون على القرآن وحلّ محلّهم الغلمان أمثال زيد وسالم مولى أبي حذيفة) الكتاب ص 295.

وهنا نقول إذا كانت المسألة تعود إلى تلك الأيام فعلاً، فما هو تكليف الناس بل ما هو ذنبهم بعد غياب المعصومين القائمين على القرآن – حسب تعبيراته – لاسيما وأن المسألة أصبحت فيها مستجدات وصارت بأيدي الرجال وعقول الرجال من المؤمنين وغير المؤمنين ممن هم على شاكلة الرجال وليس من غير الرجال من قبيل أخينا النيلي أو غيره من غير المعصومين، فماذا يفعل الصادقون للخروج من هذا المأزق ؟

لم نجد عند النيلي جواباً شافياً هنا ولكنه يستأنف حديثه قافزاً على هذا التساؤل قائلاً:

(إذنْ ليس مستحدثات المسائل وحدها هي مشكلة الدين بل المشكلة في فهم النصّ بما هو نصّ إلهي متكامل لإنقاذ العالم بأسره) ويضيف ساخراً منفعلاً:

(وحينما يكون النصّ الإلهي تحت رحمة المتأوّلين ومجاميع العقلاء جداً ويحكم فيه الغلمان ويُختلف فيه، فمن الطبيعي أن يحلّ الظلم بدل العدل، والشرك الخفي بدل الإيمان، والاختلاف والتناحر بدل الوحدة، والظلمات بدل النور).

وحين يجد السيد النيلي نفسه محاصراً بالتساؤل الأول يذهب مرّة أخرى إلى المنهج الأصولي ويهاجمه قائلاً:

(إنّ التيار الاصولي إذْ يحاول الإجابة على مستحدثات المسائل وبيان الحكم الشرعي فيها فإنما يقول وبكل وضوح إنه لا يختلف بشيء عن أعداء الحجة سواء الأول منهم أو الأخير، فهو يدعو وإنْ لم يصرّح أن الحجة لا ضرورة له وإن الناس أحرار في فهم النصّ، فإذا لم يجدوه حكموا بالعقل، فلماذا الحجة إذنْ ؟ بل لماذا الشرع أصلاً؟) الكتاب ص 296.

فما هو حلّ السيد النيلي في هذه ياترى مادام الناس غير مؤهّلين لفهم النصّ ومادام الحجة غير موجود والمستحدثات متواصلة بلا توقف؟!

وحين يستنفذ الرجل حملته هذه على الأصولين نظرياً دون أن يعطينا أو يعطيهم جواباً شافياً يقف شامخاً لمحاججتهم عملياً وهم يفتقدون قائدهم، فيوّبخهم على عدم استنزال قائدهم (من أعلى الجبل) باعتبارهم غير مؤهلين بعدُ لاستقباله لما حرّفوا في العقائد ومارسوا من المغالطات ! وارتكبوا من أخطاء ! وبالتالي فعليهم تعديل سلوكهم وأخلاقهم والاستعداد لاستقباله بعد دعوته (معززاً مكرماً)! فتصبح المسألة (**كيفما تكونوا يولّ عليكم**) وليس (**الناس على دين ملوكهم**) فينسى الرجل (الدور) هنا في خضّم هذا الغضب والانفعال ولكنه يستمر متحاملاً:

(إن هذه المغالطات تؤكّد وجود الانحراف في الطائفة الموعودة بالاستخلاف في الأرض وهي طائفة الشيعة، فهي تؤمن بالحجة ولكن عملها هو عمل المعادين له، ومحال أن يتحقق الظهور بهذه المخادعة، كما من المحال تحصيل براءة الذمة من الفقهاء بالصورة المذكورة. وقد أكّدتْ كافة النصوص على أن الانحراف في الطائفة هو أحد أهم أسباب تأخير الوعد الإلهي لأنّ الوعد مرتبط بهم لا بالكفار والنواصب ولا بأهل الكتابين، بل هم نواة الاستخلاف الأولى ومنهم ينتقل إلى الأمم بل هو السبب الوحيد للتأخير) – الكتاب ص 297.

وهكذا يحوم السيد النيلي حول أبناء هذه الطائفة باعتبارهم المكلّفين قبل غيرهم بأداء واجب الاستخلاف مع أن إمامهم ليس معهم، وعليهم هم قبل غيرهم إعداد العدّة لاستقباله، وهم بغيره لا يقدرون على ذلك ــ كما يؤكّد النيلي– فينسى (الدور) في هذا الطرح أيضاً، بل المستحيل الذي لا يمكن تحقيقه.

هذا من جانب، ومن جانب آخر: وبما أنهم لم يحصلوا على (براءة الذمة من الفقهاء) وهم غير قادرين على فهم الدين بالشكل الذي يفترضه النيلي فأين يذهبون لكي لا يكونوا (أحد أهم أسباب تأخير الوعد الإلهي)!!

ثم من قال أن الحجة لا ضرورة له؟ وأقول (من قال؟) هنا من المؤمنين الذين يفترض النيلي وجود واحد منهم على الأقل

في مئات الألوف بل الملايين من المسلمين المنتشرين في العالم اليوم.

نعم، يحق للرجل أن يقول كل ذلك، إذا كانت لديه إحصائية دقيقة عن عدم وجود ثلّة (بعدد الجداء) التي أرادها المعصوم يوماً ليقوم بمسؤوليته التأريخية، أو يُعدّ هو (لا غيره) لهم كافة الأجوبة على كافة المستحدثات التي (تعدّل سلوكهم وأخلاقهم) ولا يقع باللائمة على عموم الطائفة، لعله بذلك ينقذهم ممن يخدعهم أو بالأحرى يخرجهم من الحالة السلبية إلى الحالة الإيجابية التي يُفترض أن يصل بها معهم، وذلك بمساعيه الكريمة ومساعي المؤمنين الصادقين من أمثاله إن شاء الله، ويفتحوا للطائفة وغيرها هذه المنغلقات التي لابدّ من فتحها للخروج من أزمة هذا العالَم المتوحش الذي حلّ فيه ((الظلم بدل العدل (فعلاً)، والشرك الخفي بدل الإيمان، والاختلاف والتناحر بدل الوحدة، والظلمات بدل النور)) وكل ذلك بأن نشعل شمعةً في هذا الظلام الدامس، وإنْ كانت شمعة المنهج اللفظي أو الحل القصدي، أو التفسير النيلي أو اللغة الموحدة التي لم يستطع أحد لحدّ الآن تفكيك ألغازها مع الأسف الشديد.

ولا أراني مبالغاً إذا قلت إن من يفهمها ويفهم ما فيها ويحلّها حلاً رياضياً فعلاً سيفتح باباً واسعاً لجميع بني البشر في

فهم القرآن. نعم فهْمه فهماً جديداً وبعدها الاهتداء بهديه والاستضاءة بنوره.

أقول مرة أخرى: إن الرجل لم يوفّق بشكل كامل لتوضيح نظريته، كما أني لم أجد من استطاع أو يستطيع ذلك رغم جهدي في البحث عنه. بل المؤسف أن بعض محبّيه ابتعدوا عنه وعن نظريته بعد رحيله، فتركونا وتركوه نواصل مساءلته ومساءلة تساؤلاته.

الأكثر أسفاً أنه راح مضيفاً إشكالية أخرى زادت الأمر تعقيداً لاسيما حين راح يؤكد أن أي مجتهد مدّعٍ يدعو لتحكيم الدين وإعلان الاستقلال العقلي والملازمة العقلية بين حكم الله وحكم العقل، إنما هو (أو سيكون طاغية من الطغاة) وعلى ذلك راح مستنتجاً ما يلي:

((ولذلك تفشل كلّ المحاولات التي تريد إقامة حكم إلهي أو البتّ في الحكم الشرعي المختفي مع النصّ، فقد أشار الصادق عليه السلام إلى أن كل من تصدّى لهذا الأمر فهو طاغية من الطغاة وأنه من أهل النار، وكل الفئات سوف تصل إلى الحكم تباعاً حتى يتم البرهان العلمي على عجزهم بإقامة حكم الله، فالقرآن كتاب الله المعجز لا يحمله ولا يحكم به إلاّ رباني من أولياء الله اصطفاه الله تعالى على الخلق.)) الكتاب ص 297.

وهنا نتساءل أيضاً: هل بغير العقل استطاع الرجل إلغاء نظرية الملازمة العقلية، وهل بغير العقل يهتدي الرجال، وكيف يفسر لنا مقولات (الرجال) عن العقل و (يعقلون ويتفكرون، ويتدبرون)، وإذا كان هو نفسه يحمل عقلاً مستنيراً فعلاً فلمَ يحول بين الآخرين وبين عقولهم، فيمنعهم من استخدام هذه الهبة الإلهية التي بها يثيب الله تعالى ويعاقب ــ كما جاء في الحديث القدسي المعروف ــ؟

نعم، يقول المأثور الديني إن على الانسان يوم حسابه حجج ظاهرة وحجج باطنة ومن ضمنها أو لعلّ أولها هو العقل ولا شيء غير العقل. وإذا كان ما قاله النيلي صحيحاً حول مسألة عدم القدرة على (البتّ في الحكم الشرعي) وقائل ذلك (طاغية من الطغاة) فمن يجرؤ حينئذ التصدي لهذا (البتّ) قبل ظهور الحجة، وما هو تكليف المؤمنين في هذه الفترة لحين ظهوره(عج) وقد مرّتْ أجيال وقرون على هذا الانتظار المشرّف؟ علماً بأن معظم المتصدين ــ حسب علمنا ــ لا ينفكّون يكررون في فتاواهم المستحدثة عبارة (والله العالِم) ويحاولون التفكيك دائماً بين حكمهم و حكم الله الواقعي الذي لا يعلمه إلاّ هو سبحانه ومَن ارتضى من معصوم؟ ثم من هو الرباني الذي سيأتي قبل الحجة الذي اصطفاه الله للتمهيد لظهوره؟! وكل ذلك ــ حسب عقلنا المتواضع ــ هو أن يبقى

الحراك الاجتماعي وعنفوان الدين فاعلين في ضمير المؤمن وعقله وقلبه، يحرّكانه نحو الأفضل ويجهدان معه في سعي حثيث لا ينقطع نحو التكامل الذي هو منتهى ما أراده ويريده الباري تعالى لعبيده وعباده ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ**﴾.

ونعود إلى النيلي
ومفهوم الانتظار

ويتوقف السيد النيلي وقفة أخرى عند مفهوم الانتظار ويروح معنا يُساءل ويناقش ويبحث ويكدح، لا يهجع له بال ولا يقرّ له قرار، فيقول متألماً: ((إن وجود الإمام مرتبط بالنظام الديني بصورته الشاملة، وثمّة مغالطة فاضحة في الأمر. فأنت تؤمن بوجود قيادة محدّدة سلفاً ولكنك علمياً (وأظنه يقصد عملياً) تقوم بكل ما من شأنه أن يثبت عدم وجود القيادة بل وعدم الحاجة إليها...)) الكتاب ص 296.

ويواصل متبرماً بوصية لا تخلو من مفارقة إنْ لم أقل حيرة هذه المرّة أيضاً، إذ يقول: ((لابدّ أن تؤمن بأن غيبة الإمام مرتبطة بانحراف الجماعات، إذ لا يؤخّر الله رحمته لحظة

واحدة، فالإمام غائب لا معدوم الوجود، وغيبته مثل غيبة أي قائد عن جنوده في رؤوس الجبال، فهل يُعقل أن يقوم هؤلاء باستلام الحكم، أو تقرير الأحكام مستغلّين غيبته؟ وحينما يكون هذا العمل بدافع التمهيد لحكمه فالمغالطة أكبر، إذ لو كانت الظروف الموضوعية والشروط متحققة كاملة للحكم الشرعي لحَكَم هو فماذا ينتظر؟))

هنا يأتي استنتاج النيلي الضعيف طبعاً قائلاً:

((إذن فأنت ترغب في الحكم خلافاً للظروف الموضوعية وتحقيق الشروط وهذا يعني أن لك رأيك الخاص بالحكم، فمن المخادعة أن تزعم أنك تحت قيادته إذ إنك مختلف معه في أصل الموضوع)) الكتاب ص 296.

ترى، ما هو أصل الموضوع؟ وماذا يريد النيلي من المكلّف أن يفعل؟ وأقصد بالمكلّف هنا: المكلّف المؤمن الصادق الذي لا تخلو الأرض من عشرين او ثلاثين من أمثاله بالتأكيد (أي عدد جداء الإمام الصادق). فإذا عمل بدافع كبح انحراف الجماعات كانت مغالطة ــ حسب النيلي ــ وإذا عمل بدافع التمهيد كانت المغالطة أكبر، وإذا سكت وصمت وترك ولم يفعل أي شيء صار ناكصاً ومسترخياً ومتحللاً من الالتزامات، وفي إطار كل ذلك لا يمكن تحقيق الشروط الموضوعية الممهدة للظهور، فما هو التكليف الصحيح والشرعي في هذه الحالة؟

ويمكن أن نختصر حيرة النيلي بقولنا: أنه لابد للعالَم من قائد ميداني حجة ــ كما يرى النيلي طبعاً ــ والقائد الميداني لا يخرج إلاّ بوجود العدد الكافي من الأنصار، ولكن هؤلاء الأنصار لا يمكن أن يتحملوا مسؤولية التبليغ بدونه بالاعتماد على عقولهم لأن عقولهم ناقصة وهم غير مؤهّلين!! وبالتالي فلا واقع ميداني حاصل، ولا مشروع ممهّد واقع، لاسيما بعد أن ألغى النيلي العقل واعتبر كل من يحكم أو يقول أو يتحدث باسم الحجة طاغية من طغاة الزمان ولا تجوز طاعته أو الإصغاء إليه!! وكل من يحكم بالعقل خارج على ربّه ودينه وسنّة نبيه.

ويستمر النيلي حائراً

النيلي لا يجيب عن هذه التساؤلات ولكنه يواصل استنتاجاته قائلاً:

((فالإمام الحجة لا يؤذن له بالخروج وفق الشروط، وأتباعه يعلمون (ويقصد يعملون) بعمل العدو وينكرونه بالفعل. أقول بالفعل ــ والكلام كله للنيلي طبعاً ــ لأن الدعاء له بالفرج والظهور والتمكين ليس بالشرط الموضوعي إذ يتوجب عليهم أن يطلبوه لإشكاليات في الدين لا الدنيا!! ولا توجد الآن لدى قواعد الشيعة أية إشكالات في الدين! فكل فرد مبرأ الذمّة

بالتقليد! ومشكلته الوحيدة هي العيش الرغيد والخلاص من الظالم والحرية وما شابه، وهي جميعاً أشياء دنيوية)) إلى أن يقول:

((فالإمام تحوّل في ذواتهم من قائد إلهي يكشف عن سر الموجودات وتبرأ الذمّة باتّباعه إلى قائد يُنتظر منه تحقيق دولة تنعم بالرخاء. والرخاء هو تحصيل حاصل لدولة الإمام عليه السلام وليس هدفاً إلهياً بل هو نتيجة حتمية للتقوى كما يحدّثنا القرآن في قواعد الإستخلاف)) الكتاب ص 298.

وهكذا يحير النيلي ويُحيرنا معه مرة أخرى، فالدعاء المخلص لا يحقق الظهور، مع أنه تعبير عن الصدق ــ كما هو معلوم ــ ومن قال أن هذا الدعاء متعلّق فقط للخلاص من إشكالات الدنيا وليس الدين كما يقول النيلي؟! ومن قال إن التقليد هو لإبراء الذمّة فقط ؟ وإنما لأن هذا التقليد لم يكن ليوجد لولا هذا المنغلق الذي يستحيل فتحه حسب تحليلات السيد النيلي وفهمه طبعاً؟ ومن قال إن العيش الرغيد والرخاء هو غاية صاحب الدعاء التقيّ المخلص الذي يطلب الجنة ورضا الله، ولا يتصوّر أن في دعائه ﴿**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة**﴾ ما يغضب الله ويؤخّر نزول الحجة (من الجبل) ومعانقة من يتوسل بربّه ويتضرّع إليه. ومع كل ذلك، ورغم ما يعانيه

النيلي في هذه المعركة مع الذات والآخر وخاصة أبناء طائفته، ولكنه يعود ليقول قولاً عن (الرجال) طبعاً:

((قال: قال أبو جعفر عليه السلام: إنما مثَل شيعتنا مثَل الأندر يعني البيدر فيه طعام أصابه آكل فنُقّي حتى يبقى منه ما لا يضرّه الآكل، يميَّزون ويمحَّصون حتى يبقى منهم عصابة لا تغرّها الفتنة)) الكتاب ص302 ــ عن بشارة الاسلام: 116، طبعة سنة1332هـ.

ويضيف مؤكّداً:

((نعم، الفتن عامة ولكنّ الذين يُستخلفون في الأرض هم أساساً من فرقة الإمامية فترجع الناس إليهم تباعاً أفواجاً بعد ذلك)) وكأن الرجل لم يرتح إلى استنتاجه هذا رغم أن العصابة الباقية (الملاذ) هم من الشيعة الإمامية لأن في هؤلاء الشيعة من يبقى يثير الفتن ويؤجج العداوات ويشقّ الصفوف ــ حسب تعبيراته طبعاً ــ فيتناولهم بحديث الفتنة المعروف المروي عن الإمام الباقر والذي يقول:

((ومن أنكره – أي أنكر حديثهم– فذروه فإنه لابدّ أن تكون فتنة تسقط فيها كل بطانة و وليجة حتى يسقط فيها من يشق الشعرة إلى شعرتين حتى لا يبقى إلاّ نحن وشيعتنا)).

ترى؟ من هو الذي يشق الشعرة إلى شعرتين؟ يعلّق النيلي قائلاً: ((وهذا النص إنما يعرّض بأهل المكر الذين يحاولون تخريج أحاديثهم بمكرهم وفق أهوائهم وهو ظاهرٌ جداً في أنّ المراد منه الأصوليون ومن تابعهم، وأعني بهم بالطبع خصوص أهل المستقلات العقلية وما دخل فيها أو تحتها من عناوين علاوةً على الطبقات المعروفة لعدائها للدين من طبيعيين وفلاسفة وماديين ومثقفين وكتّاب حيث يسقط جميع هؤلاء دفعة واحدة بسقوط أسس ومبادئ أفكارهم – وأهمها التأسيس اللغوي–)) الكتاب ص302.

ويلتفتُ النيلي هنا التفاتة مهمة ليؤكّد أن لفظ (الشيعة) عند أهل البيت خاصاً بالفرقة أو الطائفة الإمامية بل هو عندهم ما حقق الشرط وهو طاعة الله ويقول:

((فثمّة أفراد في الملل هم من الشيعة على هذا المعنى، لذلك يسمّي الإمام الصادق عليه السلام الذين لم يعبدوا عجل السامري في عهد موسى عليه السلام بالشيعة تعميماً لهذا المعنى)) الكتاب ص303.

إذن، يعود النيلي إلى تفكيك التفكيك، متبرماً ساخطاً على أصغر مسألة في هذا التنظير على الصعيدين النظري والعملي. نظرياً: إلى التأسيس اللغوي واللفظي والتعاقب الصوتي واللغة الموحّدة التي لم نفهمها ولم يفهمها أحد من أنصاره ومؤيديه ــ مع الأسف ــ وعملياً إلى جماعة عامة لا تحدّها ملازمات عقلية

ولا مستقلات (نقلية) ولا قُبح أو حسن عقليين، ولا أصولية ولا مدركات شرعية وإنما جماعة صالحة لا تلتقي إلاّ في كونها لا تعبد عجل السامري وكفى الله (الأصوليون) الذين آمنوا بإله وموسى وعيسى ومحمد شرّ النقاش.

يختصر السيد النيلي كل ذلك بحديثٍ بسيط مروي عن الإمام العسكري يقول فيه: (خذوا بما رووا، وذروا ما رأوا) لينتهي إلى استنتاج مغلق حائر آخر جاء نصّه كما يلي:

((إذن فالعمل هو الأخذ بالروايات كلها مع عدم الحكم عليها بحكم عقلي بالحكم الشرعي ذاته واعتماد الكتاب مرجعاً لتصحيح وتقرير متونها، فإذا شك ولم يتّضح الأمر ترك النص بلا حكم. فلا يقول: ضعيف أو مخالف للحس أو مخالف للعُرف. فلا الحس ولا العُرف ولا العقل لهم حكم على الشرع. وكل تلك الألفاظ لها دلالة في الكتاب هي غير ما في الاصطلاح. فيتوجّب الأخذ بالخطاب الشرعي خطاباً كلياً شاملاً واحداً يفسّر بعضه بعضاً ويشهد بعضه على بعض بلا تجزئة أو تقسيم عشوائي))، إلى أن يقول:

((فكل تقسيم لم يرد فيه نصّ هو بدعة وضلالة وإن كان هدفه الأول الحفظ والتعليم لأنه لابدّ أن يفترق في النهاية عن مراد الشارع ولابدّ أن يقع في التناقص مثلما لاحظناه في أول هذا الكتاب)) الكتاب ص315.

وهكذا، حاول المرحوم النيلي حلّ الاشكالية الأولى عبر ما سمّاه المنهج اللغوي الذي لم نعرف حدوده ــ كما ذكرنا ــ وعبر كتابٍ عَسُر علينا فهمه وهو (اللغة الموحدة). حيث يعود بنا إلى ما سمّاه (الخطاب الشرعي الذي يُفسّر بعضه بعضاً) معوّلاً على الألفاظ والدلالات اللفظية التي وفّق فعلاً في حل الكثير من ألغازها، ولكنه ظل حائراً في عدد آخر منها مع الأسف – كما سنقرأ –.

أما موضوع توصيته بأن نأخذ بالروايات كلّها و (اعتماد الكتاب مرجعاً لتصحيحها وتقرير متونها) ففي ذلك مشكلة عويصة فعلاً ربما توصِلنا إلى ما وصل إليه الشيخ آصف محسني مثلاً (في مشرعة بحار الأنوار) التي لم تُبق لنا من روايات هذه البحار الشهيرة سوى خمسة بالمائة فقط (أي ما يعادل بحيرة)، وكاد يشطب على الباقي لولا خوفه من الرجال الأحياء وليس الأموات الذين أخذ عنهم العلامة المجلسي رحمه الله، والذين لا يعوّل السيد النيلي نفسه عليهم كثيراً، لأن منهجه هو الآخر لا يقوم إلاّ على علمٍ (بائسٍ) أسّسه الرجال، وهم ــ حسب نظريته طبعاً ــ لم يفهموا منهجاً لغوياً ولا سمعوا بنظرية لفظية أو تعاقب صوتي أو موجات فسيولوجية أو ألفاظ هندسية أو تركيبات لغوية تخصّ مخارج الحروف ومداخلها ومعانيها ومما لم يفهمه إلاّ النيلي وربما عدد قليل من أصدقائه ومحبّيه.

نعم، إن الذي فعله الرجال لا يعدو كونهم ناقلين لروايات الرجال نقلاً حرفياً، فصار منهجهم منهج (رواية) لا منهج (دراية) وانتهوا إلى ما انتهوا إليه بعد ألف سنة إلى ما فصّله السيد النيلي تفصيلاً طيباً حيث صار بعضهم قادراً على شقّ الشعرة إلى شعرتين، وبعضهم الآخر يروي ولا يدري، وإذا درى لا يعرض درايته على نصّ مقدس أو منهج لفظي، وإذا خالف فهمه نصّه عاد إلى لفظه، وإذا لم يفهم لفظه (تركْ) وإنّ الله مع الصابرين المحتسبين !!

خلاصة الهجمة على الأصوليين

ولا يكاد السيد النيلي يصل إلى نهاية الكتاب وهو يكافح مدافعاً عما اعتقد به ومنظّراً له تنظيراً مريراً، حتى وصل إلى نهاية مغلقة لم يستطع الخروج منها خروجاً مريحاً.

نعم، لم يستطع الخروج من هذا المُنغلق أو هذا النفق إلاّ بإيجاد كوةّ فيه توهّم أنه رأى من خلالها نوراً، أو شبح نور. ولكنه لم يستطع الاستفادة منه إلاّ باستخدام الكلمات المسعفة المعروفة: (لعلّ) و (عسى) و (ربما) ــ كما سنقرأ ــ.

فلما كان الناس (أكثرهم لا يعلمون ولا يعقلون) كما أعاد النيلي مكرراً، فالناتج ((إن عملية التعقّل في النوع الانساني

تجري ببطء شديد إلى حدّ مقرف)) ــ حسب تعبيره ــ مما يدلّ على امتعاضه وتبرّمه، فلم يجد طريقاً إلا أن أعلن ذلك وبوضوح كامل ومن موقعٍ ساخط، أقرب إلى التشفّي منه إلى العلاج والتنوير، قائلاً:

((وهنا فإني أبشّركم بغضب الطبيعة. أبشّركم بكوارث السماء وكوارث الأرض وكوارث البحار))!!

أما سببه في ذلك وكما لخّصه بإيجاز شديد فقد جاء في نصّه الآخر التالي:

((تحتاج عملية التعقّل إلى ترتيب مسلّمات صحيحة تحلّ محلّ الخاطئة ليمكن من خلالها تعقّل الحكم الشرعي. (لاحظ كلمات تعقّل). فالحكم الشرعي بمثابة شيء يعمل عملين مختلفين فهو من جهة ــ لو تم تطبيقه على المستوى الاجتماعي ــ فإنه يؤدي إلى سبيل السلام وتجاوب الطبيعة وتنامي قدرة الانسان على السيطرة عليها وتوجيهها فتكون حياته مفعمة بالحركة ويشبع رغبته العارمة بالسلطان لكنه سلطان حق بابه الإقرار بالذل أمام الله، ومن جهة يبقى لغزاً مفتوحاً كلما عرف منه شيء بقي شيء، وكلما سيطر بجزء منه على جزء من الكون والملكوت أخذته الرغبة في الكشف عن جزء آخر، فهو لغز مستمر لا انتهاء له. والذي يفهم هذا يفهم الكثير والكثير جداً من

دلالات النصّ القرآني والذي لابدّ أن يسْخر من المستقلات العقلية ويرى فيها ما لا يمكن ذكره)) إلى أن يقول:

((إن الحركة الاجتماعية والدينية تحديداً سائرة اليوم بالاتجاه المعاكس. إنها سائرة بطريق اللا تعقّل. ولذلك فإني أبشركم بغضب الطبيعة. أبشركم بكوارث السماء وكوارث الأرض وكوارث البحار....)) ــ الكتاب ص357.

وفي هذه النقطة من اليأس والاحباط، بل النقطة الملغّزة التي تنفتح على المزيد من الكشف الممتع لم يستطع النيلي أن يتلمّس طريق النور (طريق اللا تعقل) الذي تسير نحوه الحركة الاجتماعية والدينية فعلاً. نعم، لم يجد النيلي طريقاً لتجاوز هذه الأزمة على الأقل نظرياً ــ والامتثال لطريق التعقّل وتجاوز المحنة، إلاّ بمثال مسطّح هو الآخر، كثيراً ما يستشهد به أنصار الرواية ودعاة التعبّد حين يصطدمون بأنصار الدراية ودعاة التعقّل.

هذا المثال هو قصة إنكار أبان بن تغلب لأحد النصوص بشأن ديّة أصابع المرأة.

نعم، إبان هذا هو الذي أشاد به الإمام الصادق ومدحه وأثنى عليه وطلب منه أن يجلس في مسجد المدينة ليُفتي الناس، ومع ذلك فقد شكّك هذا الرجل بخبر الثقاة لحكم عقلي سبق.

فقد بلغه أن ديّة إصبع المرأة عشرة من الإبل فإذا قُطع منها إصبعان فلها عشرون من الإبل، وإذا قطعت ثلاثة فلها ثلاثون وإذا قطعتْ لها أربع فلها عشرون.

لم يقبل إبان بعقله هذا الحكم. وحينما التقى بالإمام عليه السلام وسأله عن ذلك أجاب الإمام بنفس ما بلغه، فقال أبان: (قال قلتُ سبحان الله يقطع ثلاثاً فيكون عليه (أي على القاطع) ثلاثون، ويقطع أربعاً فيكون عليه عشرون؟ إنّ هذا كان يبلغنا ونحن بالعراق فنتبرأ مما قاله، ونقول إنّ الذي جاء به شيطان!!

فقال الصادق عليه السلام مهلاً يا أبان: هذا حكم رسول الله صلى الله عليه وآله إن المرأة تُعاقل الرجل إلى ثلث الدية، فإذا بلغت الثلث رجعت إلى النصف (عن الكافي ج7 باب الدية)).

((فدّية الرجل الكاملة مائة ويساوي الشرع بينهما في الديّة إلى الثلث ونصيبهما الأصلي هو النصف فهذه زيادة له وفضل تُعاقل الرجل في ديّته إلى الثلث فإذا زاد عن الثلث رجعت إلى فرضها الأصلي الذي هو النصف. وما يُدريك لعلّ (لاحظ لعلّ) هناك سراً آخر في الأمر له علاقة باحتمالات القطع بسبب تقابُل الإبهام مع الأصابع الأربعة ولعلّ هناك أسراراً أخرى مجهولة تحتاج إلى تعقّل بعد التسليم بها إذْ لو تعلّق التسليم بالتعقّل فلن يحصل التعقّل مطلقاً)).

ولا أدري أمام هذا الخانق كيف يحقّ للعقل أن يتعقّل لاسيما وأن القاعدة تقول أنه بهذا العقل يثاب الإنسان ويُعاقب ــ كما جاء في الحديث القدسي ــ (إذْ خاطب الباري تعالى العقل يوماً فقال له أقبِل فأقبَل، وقال أدبِر فأدبَر، فقال الرب: وعزّتي وجلالي بك أُثيب وبك أُعاقب).

نعم، يمكن أن يختلف عقلي عن عقلك ولكنّ المبنى ليس في هذين الاختلافين ولا في اختلاف العقلاء، وإنما في ما يحدّده الشارع في بعض الأحكام فعلاً، كعقوبة الإعدام، وعقوبة الموت السهل – كما يسمونه – أي قتل الشخص الذي يصل فيه الأطباء إلى حد اليأس من شفائه، وبعبارة أدقّ إجراء الموت السهل، أو الانتحار، نزولاً إلى القصاص والديّات وأنظمة الجزاء والعقوبات، وتفاصيل المواريث والحقوق والواجبات التي يختلف فيها البشر وتتباين آراؤهم تبايناً كبيراً.

أقول: حول هذه النقطة أو تلك، قد يأخذ العقل فسحةً من الراحة لما يسمّيه السيد محمد باقر الصدر (منطقة الفراغ) عند غياب النصّ أو سكوته، فيروح محلّقاً في فضاءات النصّ، متحركاً يبحث في مدارات المستقلات العقلية فيتماهى مع فضاء النصّ أحياناً، ومع الذات والهوى أخرى، ومع الآخر والآخرة ثالثة، ومع خالقه رابعة، وربما يأخذه الملل ويقرّ كما تقرّ المياه الآسنة. وإذا توقف العقل عن الحركة والاجتهاد بذريعة (عدم

شرعيته) أو عدم قدرته على التشريع فإن الحياة ستنتهي، ولا يبقى على هامشها إلاّ (الطحالب والعلّيق)، وربما تعود دورة الحياة إلى الحمأ المسنون أو الطين اللازب المنتن، أو الصلصال الفخار (أي الإنسان) الذي يترشّح من الطين. وهنا لا ندري هل هذا الإنسان أفضل أم النار التي خُلق منها إبليس باعتبار الأخيرة أصلها من الشجر وسبحان الذي جعل من الشجر الأخضر ناراً.

اللغة الموحّدة والحلّ القصدي للغة

يُعتبر كتاب (اللغة الموحدة) البناء التحتي لنظرية النيلي برمّتها، إذ يبني الرجل بل يجزم أن هذا الكتاب، وكتابيه الآخرَين (النظام القرآني) و(الحل القصدي للغة) هما أنضج وأعمق ما أنتجه الذهن البشري المجتهد لفهم سرّ اللغة عبر تأريخه الطويل- حسب تعبيره-، فيقول ما نصّه:

((لذلك أجزم بأن الوقت لن يكون طويلاً حتى تسمع بأذنيك أو تقرأ بعينيك أن كتاب (اللغة الموحدة) وكلاً من كتابَيْ (النظام القرآني) و (الحل القصدي للغة) هما خير ما أنتجه الذهن البشري المجتهد لفهم سرّ اللغة عبر تأريخه الطويل، ولن يمرّ إلاّ وقت أقصر حتى يعلم العالَم بأسره أن (قفل الميتافيزيقيا)

الصدئ لم يكن في الواقع قفلاً خارجياً بقدر ما هو قفل صدئ داخل (الأنا) الإنساني)) (اللغة الموحدة ص 14).

بهذه الجزمية – ولا أقول النرجسية – يروح السيد النيلي وفي عموم كتابه هذا البالغ 600 صفحة مكافحاً متململاً، يتقلّب بين الأصوات ودلالاتها ومعانيها، مؤكّداً أن هذه الأصوات وتعاقباتها لم تأتِ اعتباطاً على الإطلاق وأن الأصوات التي تكونت منها كلمة (بحر) مثلاً وهي (ب – ح – ر) – التي ذكرناها سابقاً – إنما جاءت بقصدٍ لغوي شاء الله خالقها لها أن تكون هكذا لتشكّل من تعاقب آخر دلالة أخرى بل دلالات مثل (حرب) (ح – ر– ب)أو (حبْر) (ح– ب– ر) بكسر الحاء، وهكذا في كل مفردات وألفاظ ومصطلحات أهل الدنيا منذ بدء الخليقة ولحدّ قيام الساعة، أو معرفة سرّ الكتابين المذكورين.

وحين يتوقف مع كلمة (أنظر) مثلاً أو (look) باللغة الانكليزية تراه يستخرج للأولى أكثر من عشرة مفردات جميعها تشير إلى نفس المعنى وتؤدي نفس الدلالة باللغة العربية، فهي: (حدّق) التي صارت (دحق) من حدقة العين، ثم (دحج) أو (حدج)، وكذلك (عاين) من (عين) و (معاينة) وهكذا (باوع) أو (باع) باللهجة العراقية، إشارة إلى قرب الرؤية، و(بص) بالمصرية أي أبصر، و(شوف) و (لاحظ) و (إلحظ) و (إنتبه) و (إربي) من حيوان صحراوي لا يرى إلا برمي النظر بعيداً

لمشاهدته عبر التركيز عليه، وهكذا مما يطول شرحه وتمتدّ اشتقاقاته بامتداد عمر الإنسان واللغة، لاسيما إذا أخذنا (شوف) مثلاً والتي منها (شفّ)و (شفاف) أي يمكن النظر من خلاله، و (شايف)، و أخيراً وليس آخراً (شفافية) التي لم تستخدم إلاّ مؤخراً، لتوضيح قضية نفسية وليس مادية أو بصرية. ومثلها كلمة (زكاة) المشتقة من كلمة (زكي) أو (تزكية)، أي طاهر وطهارة. وربما هي نفس كلمة skatt (سكات) باللغة السويدية التي تعني الضريبة، المطهرة والمزكّية للنفس الإنسانية. وهلمّ جرا... إلى ما لا حدود له ولا شواطئ.

ويرى النيلي كذلك أن جميع هذه (التركيبات) هي في الأصل (احتمالات متعاقبة للأصوات) وهي أفكار لحركة جوهرية فيها. فالفكرة كما يقول: ((هي عين المفردة وليست شيئاً آخر غيرها. ولذلك فالأصل في الكلام أنه عبارة عن ترابط بين الأفكار عن طريق المفردات وفي النتيجة فإن (ترابط المفردات يعني ترابط الأفكار) الكتاب ص53. مثل لفظتي (زكاة) و(سكات) المذكورتين.

خذ مثالاً آخر كلمة سيف وأسمائها ومعانيها وأفكارها الأخرى من قبيل: البتار، القاطع، المهند، القائم، الحسام، الفيصل، ودلالالتها اللفظية المعبرة التي تشير كلٌ منها الى فكرة أو حركة.

ولعل كلمة (شجرة) أو فكرة (شجرة) هي أوضح دليل على ما أراد الكاتب الوصول من خلاله إلى مراده، معتبراً هذه الكلمة أصدق الكلمات المعبرة عن التفرّع والاشتقاقات والشجارات والانشقاقات والفِرق والتفرقات بل الاقتتال والاحترابات والحروب وكل ما يمتّ إلى النزاع والشر والصراعات البشرية التي تتفرع و تتشعب وتتشظى كفروع الشجرة. ولكن المؤسف – كما يرى النيلي – أن الذي اشتق هذه الفكرة، أو ذكَر هذه الكلمة لم يذكر معها الفكرة الأخيرة بهذه الدلالة أو هذا التوضيح في التعاقب الصوتي للفظ (ش – ج – ر) وأضاف أنّ هذا الاستدلال أو هذا التعريف كان (يمكن أن يكون ثورة في عالم اللغة لو قُدّر لقائله ((حينها)) الاستمرار بمثل هذه الطريقة) – الكتاب ص59.

ويوعز النيلي أسباب هذه (الانقسامات) أو (الشجارات) اللغوية إلى العامل الديني والقومي والصراعات بين بني البشر، وكأنها عقاب (إلهي) داخلي للشعوب على ما تقترفه من حروب أهلية، وماتثيره من فتن وصراعات تؤدي في النهاية إلى تشكيل طوائف وقوميات وشعوب ثم ولايات وإمارات تنشأ بينها معارك ثم حروب وتكتلات وشجارات وتحالفات تقود هي الأخرى إلى معارك طاحنة ونزاعات تحوّل كلمة (كوب) في هذا البلد إلى (cup) (كب) في بلد آخر، و(جَمل)هنا إلى (كَمَل) أو (كمِل)

camel هناك، و(نوبل noble) هنا إلى (نبيل) هناك أو بالعكس، و(صباح الخير) إلى (صُبّ بخير) أو (صبح بخير)كما في العربية والفارسية، و (good morning) في الانكليزية إلى (guten morgen) في الألمانية، وgood morgon باللغة السويدية بدون لفظ حرف الــ (ج) good moron (كُد مورون)، وهكذا كلمة (drive) في الانكليزية التي تُلفظ (درايف) وكيف أنها تُلفظ (دريف) في اللغة السويدية. ومثل هذا كلمة (قَتَلَ) التي صارت (كَتل) ثم (أتل) باللهجة اللبنانية إلى (كِل) (kill) في الانكليزية، و (كَتَلْ) في العبرية، وما لا عدّ له ولا حصر في مسلسل هذا (العقاب) اللامتناهي في عالَم اللغات والشعوب والأديان والقوميات.

الخلاصة،- كما يرى النيلي - أن الإنسان أو البشر هم الذين يعملون هذا الإرباك، ويغبّشون بمثل هذه الاعتباطية على اللغة، إذْ ليس الاعتباطية صفة في ذات اللغة كما يرى الجرجاني ودي سوسير ومن سار على خطّهما من اللغويين السابقين واللاحقين وإنما هو جهل الإنسان وذاته وأنانيته.

وحين يأتي النيلي إلى معاني الأصوات في كتابه(اللغة الموحدة) تراه خائضاً غمارها بشكل عجيب تصعب ملاحقته أو مواكبته لاسيما في (الخرائط) التي رسمها، والهندسة الصوتية التي لاحقَ ذبذباتها. فتراه حين يأتي إلى كلمة (Boaf) مثلاً

ويستخرج منها أصواتها (ب – و – ف) أو (B.O.F) الانكليزية التي هي ثور، وتَعاقُبها الصوتي (ث – و– ر) في العربية، ويتأنى في مقاطعها الصوتية يستخرج من الأولى الحجم في صوت الــ (باء والفاء) وتضخيم الــ (واو)، وهكذا من الثانية حيث الــ (ثاء والراء) حتى يصل إلى المفردة الأخرى للثور، وهي (O.K.S) باللغة الانكليزية ليستخرج منها الشراسة والمشاكسة. ولماذا تحولت من (ب – و – ف) إلى (أ – و – ك – س) اللتان هما صفتان لازمتان لهذا الحيوان – مثله مثل كلمة (حصان) التي اشتقها من (حصن) و (حصين) وكيف أن الذي يعتلي ظهر الحصان يتحصّن من المهاجمين والأعداء، وماذا تعني أصوات كل من(ح.ص.ن) لتشكّل هذا المعنى أو هذا الفكرة، وهكذا كلمة (أسد) من (سدّ) ومعنى الــ (سين) التي قال أنها (انسدادية) ومعنى الــ (دال)التوقفية و(الباء) الانبثاقية، وكيف تخرج هذه الأصوات من الحنجرة واللسان ومن بين الأسنان، ومما لا يستطيع تفكيكه إلاّ علماء الألسن والموسيقيون بالتعاون مع الأطباء واختصاصيو الذبذبات وصولاً إلى الفيزياويين ورجال الفسلجة وعلماء الأحياء والهندسة والنفس، وكيف يُستخدم صوت الــ (سين) وحده للصمت والإسكات في بعض البلدان فيما يُستخدم صوت الــ (شين) لنفس الغرض في بلدان أخرى وهكذا.

وإذا وصلنا إلى لفظتي (حفيف) و (فحيح) مثلاً نجد دلالات التعاقب الصوتي وإيحاءاته أكثر تعبيراً عن المعاني الحقيقة لهاتين اللفظتين، وكيف أننا نسمع موسيقى الأشجار وهي تتحرك بإيقاع الهواء العذب وهو يداعب أوراق الشجر، فيما نسمع (نفث السم) في اللفظة الثانية (أي فحيح) مقروناً بالحقد والغدر، والأصوات نفس الأصوات ولم يختلف فيها إلا تعاقبها المعبّر الغريب.

ولا يتردد النيلي في اتّهام علماء الأديان واللاهوت والمفكرين، ومعهم المثقفين والفلاسفة وعلماء الكلام، وكيف ساهم هؤلاء جميعهم في عملية تخريب اللغة عن عمد حيث خلطوا القيم بعضها ببعض قائلاً: ((في البدء لم أنتبه إلى اللغة، فحسبتُ أن الأمر عادي، فاللغة تُستخدم من قِبل الجميع ولكافة الغايات، باعتبارها وسيلة للتواصل ونقل الأفكار. وكان البحث عن نظام محدد للقيم هو الذي دفعني إلى الانتباه إلى نفس اللغة، ثم حاولتُ دراسة هذه (الأداة) لا باعتبارها وسيلة لنقل الأفكار، بل باعتبارها غاية في نفسها، أي أنها فكرة من الأفكار)) الكتاب ص85.

وأخيراً – حسب النيلي طبعاً – ((فإن علم اللغة هو أخطر العلوم قاطبة وأكثرها استغلالاً من قِبل قوى الشر في العالم)) وهذه هي الخلاصة.

وهنا وضع النيلي المفتاح، وكان سبقه في بعض ذلك المرحوم الدكتور علي الوردي في كتابه (أسطورة الأدب الرفيع) الذي أجاد فيه الهجوم على النحويين العرب وما فعلوه في اللغة العربية لغايات لئيمة عرفها بعض الناس وما زال بعضها لا يعلمها إلا الله، لاسيما وهو يسخر من هؤلاء وكيف يتبجّحون بإتقانهم النحو عبر تمييزهم بين الجملتين التاليتين:

(اشتريتُ ثلاثة صناديق كتباً) و

(اشتريتُ ثلاثة صناديق كتبٍ)

وكيف دلّت الأولى على (شراء كتب تملأ ثلاثة صناديق)، فيما دلتْ الثانية على (شراء صناديق للكتب) دون الإشارة إلى الكتب معها في الوقت الذي كان بالإمكان التخلص من هذه (الفبركات) باستخدام كلمة (من) للأولى ولام التملك للثانية، أي أن يقول القائل:

(اشتريتُ ثلاثة صناديق من الكتب).

ويقول في الثانية: **(اشتريتُ ثلاثة صناديق كتب)** أو **(أشتريتُ ثلاثة صناديق للكتب)** أي إبقاءها كما هي، وكان الله يحب المحسنين، وهكذا مع (أخوات) كان، و (عمّات) إنّ، والفرق (المدمّر!) بين: **(كان الولدُ نائماً)** و **(إن الولدَ نائمٌ)** !!

ومثلهما: الفرق بين: **(ما أجملُ السماء)** الإستفهامية، و **(ما أجملَ السماء)** التعجّبية.

وفي خضمّ هذا الجدل اللغوي والفكري يرى النيلي أنه لابدّ من وجود نظام لفظي مُحكم، وكتاب قياسي فريد، تقاس به كافة اللغات والألفاظ في هذا العالم أو هذا الكون.

ولابدّ لهذا النظام أو الكتاب أن يكون مُعجزاً ولا يقْدر البشر أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً – كما يقول صاحب الكتاب أي الخالق سبحانه وتعالى –. فيفترض من خلال دراسته للنظام القرآني وهندسة الألفاظ فيه، أن هذا الكتاب هو القرآن وهو ((الكاشف عن المعاني الحركية للأصوات – حسب تعبيره – وهو كتاب يتميّز بنظام لغوي دقيق للغاية يتحرّك مع كل لفظةومفردة وتركيب، وأنّ دقّته هذه تفوق الدقّة التي يظهر بها النظام الكوني في الكبر أو النظام الذري في اللطف والصغر...)) الكتاب ص 97.ويضيف:

(وعلى العلماء خاصة بذل الجهد للعثور على تلك اللغة في هذا الكتاب أو في غيره، (باعتبار) لغتُه هي اللغة القياسية بالفعل) وأنها المعيار لكل لغات العالم ومنذ خلق الإنسان والى قيام الساعة وانكشاف كل الأشياء والأسرار.

نعم، يرى النيلي أن هناك حركة فيزيائية للأصوات، وأن لكل صوتٍ معنى ودلالة، وأنّ هناك حركة كامنة في الحروف

تفيد الأفكار وتُفضي إلى تفسير ماسمّاه الظواهر اللغوية، وذلك من خلال تفكيك التسلسل الصوتي للحروف (ك – ت – ب) مثلاً وما هو الفرق بين هذه الكلمة والكلمات الأخرى المقاربة لمعناها مثل: (دوّن) و(سطّر) و(أرّخ) و(نقشَ) و(خطَّ) و(رسم)وو.... وكيف يمكن الوصول إلى مالانهاية له في عوالم اللغة والألفاظ والدلالات...

المؤسف، إن كلّ ما حاول النيلي الاستدلال عليه، لم يستطع إثباته، أو قل لم نستطع فهمه بشكل دقيق. أي إنّ زعمه وفهمه بأن نظريته هي (خير) ما أنتجه الذهن البشري، هو شيء لا يمكن إقراره بسهولة على الأقلّ الآن، رغم إنّ الرجل قد تقدم خطوة، وخطوة مهمة في الطريق الطويل.

نأمل أن تكون هذه الخطوة باكورة عمل لفريق كبير من اللغويين وعلماء الألسن وعلماء والموسيقيين والفيزيائيين والأطباء وغيرهم، لعلّهم يتقدّموا خطوة أخرى لحلّ لغز اللغة والتي بها تحلّ لغة الكتب المقدسة ومصدرها السماوي وبشكل يفوق كثيراً ما جاء به الإنسان من استدلالات لحدّ الآن.

استظهارات صوتية

وقبل دخولي في موضوع (الحلّ القصدي للغة) – كما سمّاه صاحبه– أي صاحب الحل القصدي –، وفي السياق نفسه وجدتُ نفسي يوماً أمام تعاقبات صوتية لم أستطع الانسلال من إيقاع أجراسها الموسيقية المعبّرة ولا من وقْع ذبذباتها على وجودي وعقلي وإحساسي.

نعم لقد وجدتُ هذه الأجراس تقرع سمعي وتهزّ مشاعري رغماً عني مع أني لستُ من اللغويين ولا من النحويين، ولا من أصحاب الاختصاصات الألسنية أو الشعراء المحترفين.

نعم، كنتُ أيام الشباب أقرأ الشعر وأستأنس به، فحدَثَ يوماً أن دار الحديث عن الشعر العمودي العربي العذب، ومعه سؤال عن أفضل الأبيات الشعرية التي قيلت في الرثاء مثلاً؟! كان الجواب أنها تلك التي قالها أحد شعراء العصر الجاهلي وهو الزير سالم أبو ليلى الهلالي حين راح ينعى أخاه كليباً قائلاً:

كليـــبُ لاخير في الدنيـــا ومن فيها
إنْ أنتَ خـــلّيتها مـــن يبقَ واليها
تنعي النـــعاة كلـــيباً فقـــلتُ لـــهم
مالتْ بنا الأرض أم مالتْ رواسيها
ليت السماء على من تحتها وقعتْ
وحـــالتْ الأرض فاندكّتْ أهاليـــها

وهنا توقفتُ عند المقطع الأخير في البيت الأخير من الشطر الأخير، وهي عبارة (فاندكّت أهاليها) ورحتُ أتأمّل في كلمة (اندكّتْ) هذه، وتحديداً موسيقى الأصوات التي تركّبت منها، وإيقاع الذبذبات الصوتية المدوّية في كل من الـ (د) والـ (ك) فوجدتُ أنه بدونهما، أي بدون هذين الصوتين لا يمكن أن تحصل الصورة أو الفكرة أو الدلالة التي أراد الشاعر إيصالها إلى مستمعيه.

هذا مع اللغة العربية. ومثلها حصل لي مع أبيات شعرية مماثلة في اللغة الانكليزية، حيث ألفتَ نظري إليها حينها أستاذي في الشعر في هذه اللغة أيام دراستي الجامعية، وكيف راح الشاعر أو قل هذا الأستاذ يصف أصوات الأمواج التي راحت تضرب الشاطيء الصخري للبحر وهي ترتدّ يائسة من احتمال التأثير في صخوره الصماء، أو قل كيف كانت هذه الأمواج تتفتتْ وتتفجّر على جرفه الصخري وتعود ذرات ماء متناثرة إلى مصدرها، تماماً كما تعود أفكار الانسان المحطّم منكسرةً إلى صدره حيث لا تجد من يناغيها أو يحتضنها أو يستجيب لها، وهي تتفجّر في داخله.

هذه الأصوات أو الأبيات أنقلها كما هي بإيقاعها وموسيقاها ومكرراتها اللفظية لمن يعرف اللغة الانكليزية ويتقن بالكامل ذبذباتها وموسيقى حروفها الحنجرية (العلية) و (الصحيحة)

المرسلة: vowels and consonants وكيف اجتمعت الـ (p) و (s) و (sh) لترسم الصورة أو الفكرة التي أراد الشاعر رسمها أو تصويرها في هذه اللوحة البحرية المتلاطمة:

Splash, splash, splash,
On thy grey stones O sea!
And I wish that my tongue
Could utter the thoughts
That arise in me.

ولا تقتصر هذه المعاني الصوتية على لغة دون أخرى فهي تشمل كافة لغات العالم بلا استثناء.

هاك مثالا باللغة الفارسية. أتركه بلا تعليق لعلّ قارئه أو المستمع إليه يفهم معناه الصوتي حتى دون فهم اللغة وذلك عبر التركيز على أصوات الـ (خ)و الـ (ش) والـ(چ) في البيت التالي:

بر او راست خم كرد و چپ كرد راست

خروش از خم چرخ چاچی بخواست

وتمّر الأيام والسنين وأنا أتذكّر هذه الأمثلة والإيقاعات باللغتين العربية والانكليزية بين فترة وأخرى من هذا الشاعر أو ذاك، أو من هذه المقطوعة الشعرية أو تلك.

وذات يوم، وفيما أنا أستمع إلى بعض آيات القرآن الكريم بتلاوة أحد أصحاب الأصوات العذبة وإذا به يقرأ علينا، أو يتلو علينا آيات منسابة من حنجرته، تصوّرته خلال تلاوته لها أنه كان يرسم صورة عجيبة من مقاطعها وانسيابيتها وخاصة حرف العطف (الواو) المتكرر فيها والأمواج الصوتية التي كان يتحرك صوته ولسانه خلالها أو بالعكس، أي كيف كانت تلك الأصوات وذلك الإيقاع يحرّكان لسانه وحنجرته وذبذبات صوته.

كان يقرأ بل يرسم صورة للمقطع الأخير لسفينة نوح بعد الطوفان وكيف توقّف المطر وابتلعت الأرض المياه، ورستْ السفينة على جبل الجودي بعد هلاك الظالمين.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ المَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

مضى وقت طويل وأنا لا أدري هل كنتُ (أتماهى) مع الموسيقى اللغوية التي كانت تصنع إيقاع صورة السفينة والمطر في هذه اللوحة أم إن اللغة فعلاً هكذا، لا أدري، أي هل أن أصوات وحركات وسكنات هذه الجملة جاءت اعتباطاً أم أنّ هناك ألغازاً في حروفها وكلماتها وأصواتها؟!

وجاء يوم آخر وشاعر آخر ليقول لي متسائلاً:

هل تعلم ما هو أعظم بيت في الشعر العربي قيل في وصف لحظة سقوط الإمام الحسين عليه السلام صريعاً على أرض كربلاء؟ لم يتأخر الجواب كثيراً حتى جاء إجماع الشعراء العرب على هذا البيت وكيف صيغت الموسيقى الصوتية فيه، والهدفية الدقيقة في تعاقب ألفاظه وحركة الحروف وهندستها لترسم اللوحة (أو الفكرة) التالية المذكورة:

واهتزّت السبـــع الطبـــاق وزلزلتْ

رواسي جبال الأرض والتطم البحرُ

لم يستطع شاعر شعبي وموسيقار آخر سمعَ هذا البيت حتى راح يرسم لوحة تجريدية من ست كلمات وضعها في بيت شعر شعبي معبّر هو الآخر ووضع فيها من الأصوات ما تقشعرّ له الأبدان فعلاً، بحيث يقف المستمع ماسكاً شعر رأسه خشية أن يتطاير تحت وقْع وذبذبات أمواجها المرعبة الرهيبة، فتسمعه، بل تراه يقول:

((حتى جلد الگاع كزبر من وگع لحسين))

أي: حتى قشرة الكرة الأرضية اقشعرّت وانكمشت حينما وقع عليها جسد الحسين صريعاً مضرجاً بدمه.))

وكأن هذه الـــ (كاف) و (الگ) المضخّمة ومعها التعاقب الصوتي لـــ (ز) و (ر) في (كزبر) هي التي صنعت اللوحة

الفكرة في اللهجة العراقية طبعاً، وصيّرت منها إيقاعاً لا يفهمه بالكامل إلاّ المتذوّق لهذه اللهجة بطبيعة الحال.

أمثال هذه التعاقبات الصوتية والموسيقى التعبيرية تكثر في القرآن الكريم وهي التي جعلت العرب يتعجّبون ويندهشون ولايجدوا أمامها إلاّ الذهول والاعتراف بالعجز حتى راح أعتاهم يقول: ((**إنّ فيه لطلاوة وإنّ عليه لحلاوة**))، فيما راح آخر يعترف أنه لا يمكن أن تُرسم صورة ليلٍ وفجرٍ وصبحٍ بأحلى من التعاقب الصوتي لحرفي الــ (عين) و الــ (سين) في الآية الكريمة التالية: ﴿**والليل إذا عسعَس والصبح إذا تنفّس**﴾ أو الأخرى التي تُفتتح بالأصوات ولا يعرف أحد أسرارها الحقيقية لحدّ اليوم مثل ﴿**كهيعص** (ك – هــ – ي – ع – ص) **ذكر رحمة ربك عبده زكريا**﴾ و ﴿**ن والقلم وما يسطرون**﴾ و ﴿**ألف– لام – راء تلك آيات الكتاب المبين**﴾ و ﴿**قاف والقرآن المجيد**﴾ و ﴿**ح – م تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم**﴾ وأمثال ذلك.

وكل ذلك من أجل أن يَعرف المستمع أو المتلقّي قيمة الصوت بذاته، لأن هذا الصوت وهذا التعاقب لم يوضعا عبثاً أو اعتباطاً كما يقول الاعتباطيون أصحاب الجرجاني و دي سوسير، وإلاّ فإن المتلقّي مهما كانت لغته أو لسانه يمكن أن يفهم أصوات الخيول وقعقعة السلاح وضرب الأسنّة ومشْق

السيوف في التعاقب الصوتي لكلمتين اثنتين في النصّ التالي وحتى بدون أن يعرف اللغة:

قـــــومٌ إذا نـــــودوا لدفعِ ملمّةٍ

والخيــل بين مــدعّسٍ ومكردسِ

وضعوا القلوب على الدروع وأقبلوا

يتـــــهافتون على ذهــاب الأنفس

ولا أراني هنا مبالغاً إذا قلتُ أن أصوات الـــ (الدال والعين المشدّدة والسين) في كلمتي (مدعّس ومكردس) لا تختلف في إيقاعها وإيحائها عن صوتي (السين والشين والـــ ياء) (S.P.Sh) في كلمة (Splash) الانكليزية المارّة الذكر إلاّ في كون الأولى (مدعّسة ومتكردسة) والثانية منتشرة مفتتة، أي هذه مع ماء متطاير متناثر، وتلك مع خيول متدافعة متطاحنة مثلَها كمثَل فحيح وحفيف المارتيْ الذكر، وبالأصوات فقط لا غير، بعيداً عن اللغة أو اللغات التي تنتمي إليها هذه الكلمات أو ينتمي إليها قائلوها.

ولعّل هذا هو ما قصده أو حاول النيلي توضيحه في دراسته لمعاني الحروف والأصوات، وطرْحه لنظريته التي لم تُفهم لحدّ الآن، أو قل لم نفهمها نحن في أقلّ التقادير.

نعم، لقد بذل الرجل جهوداً مضنية لتوضيحها، ولكن عمره لم يمهله لشرحها وتبيينها بالقدر الكافي، فترك ذلك لمن يأتي بعده من علماء الألسن والموسيقيين والفيزياويين، وأطباء الحنجرة والأوتار الصوتية، وربما الفلاسفة وعلماء الكلام وكل من له علاقة بالأصوات والألفاظ ومخارجها ومداخلها.

نأمل أن يكون اجتماع هؤلاء فاتحة خير لنا لفهم الهندسة اللفظية للقرآن الكريم التي حاول الرجل تفكيك تعاقباتها ورموزها، وإنْ كان لم يوفّق بالمقدار المطلوب مع الأسف الشديد، او قل لم يستطع إقناعنا بعبارة أقرب إلى الواقع.

التماعة سريعة مع الحل القصدي للنيلي

يرى النيلي أن الحلّ القصدي للغة هو المفتاح الذي تنفتح به مغاليق النظام اللغوي في العالم، ويقضي على جميع المشاكل الناتجة عن تقاطع الألفاظ وارتباك الأصوات في اللغات البشرية، وذلك عبر الدراسة الدقيقة لكل لفظ والتي أجراها عليها في كتابه اللغة الموحّدة، ولكنه مع الأسف لم يتمّها ولم يستطع أحد من محبّيه أو مريديه إتمامها لحد الآن.

يقول النيلي هنا:

((وبدلاً من ذلك دراسة حركة كل لفظ لمعرفة المزيد من نفس الحركة)) ويضيف:

((فهذا يؤدي إلى معرفة صحيحة للغة والأشياء، ويجنّبنا العبث بالنظام اللغوي، ويقضي على مشاكله جميعاً)) الحل القصدي للغة ص25.

وقد وضع السيد النيلي كتابه هذا تحت عنوان (الحل القصدي للغة في مواجهة الاعتباطية) مؤكّداً أن الحلّ القصدي (أي حلّه هو) يجيب عن تساؤل تأريخي لأول مرّة في التأريخ الإنساني ــ حسب تعبيره ــ وهذا السؤال هو:

((من أين لنا أن نعلم أن النصّ القرآني هو نصّ إلهي؟)) وجوابه هو أن الحل القصدي يكشف عن قيمة الأصوات في هذا النصّ، وبالتالي عن دلالة المفردة، وأخيراً عن النصّ المفروغ من صحّته صحّة مطلقة. ويعلّل كل ذلك بقوله:

((وهذا الحل هو الوحيد المنطقي، لأن الإجابة القديمة التي تقول: ان القرآن وحي إلهي بسبب التواتر عن النبي هي إجابة مخالفةٌ ومناقضة للنبوّة والرسالة. ذلك لأن الرسول أثبتَ كونه رسولاً من خلال القرآن فلا يمكن إثبات القرآن من خلال الرسول. وقد كشفتُ عن هذا التناقض في ذلك الكتاب أيضاً. أما الإجابة الأخرى عن كونه (بليغ) أو فيه إخبار بالمغيّبات فهي

غير معتمدة عند الجميع، لأنها عبارة عن (دوران) حول الإعجاز، اما الإعجاز نفسه فلم يكشف قبل ظهور الحل القصدي)) المصدر نفسه ص32.

وعلى منهجية السيد النيلي الاقتحامية الجريئة هذه يستمر مهاجماً الاعتباطية في عموم كتابه هذا، مركّزاً الهجوم على من سماه (شيخهم) أي شيخ الاعتباطية (دي سو سير) الذي لم تكن له غاية كغاية المسلمين (وإنما قام بمباركة ما فعلوه وتثبيته في نظريته التي تنتشر في الغرب (خشية أن يصحو) أحد يوماً ما فيعيد النظر في نصوص العهدين) الكتاب ص87.

ومؤكّداً أيضاً:

((أن الاعتباطية لا تحترم النصّ أبداً، ولا تنظر إليه على أنه مُلك المتكلّم أو القائل بل تنظر إليه على أنه (ملكها هي) وهذه في الحقيقة ليست مشكلة لغوية، وإنما هي مشكلة فكرية وأخلاقية، ذلك لأن رجال الاعتباطية أنفسهم يرغب كلّ منهم أن يؤتيه الله (ديناً) على حسب مطالبه، وهو يريد أن يختار في الدين الواحد ديناً آخر يخصّه، وينسجم مع تطلّعاته، وقد عبّر القرآن عن ذلك بالقول: ﴿بل يريد كل امرئٍ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة﴾ المدثر52 ــ الكتاب ص118.

وبالتالي وكما قال النيلي في نص آخر سبق هذا النص:

((فالنتائج الاعتباطية لا تتراكم فوق بعضها وتعلو، بل تتكدس متجاورة مثل أي بحث اعتباطي كالفكر الفلسفي مثلاً، وحينما تُحرج في بعض الموارد والنتائج المتناقضة، فإنها تحاول تبريرها بالطرق (الذرائعية) أو الأساليب (السوفسطائية) وتقوم بتقدير جمل أو مركبات أو حروف أو ألفاظ من عندها إتماماً لنتائج العمل الاعتباطي))

الحقيقة والوهم

ولكي يعزّي النيلي نفسه ــ أو قل هكذا هو الواقع ــ جاهد الرجل على إقناع نفسه بأنه على حقّ، فما انفك يكرّر: ((أما الكفر والإيمان فليس فيهما ذلك الاتجاه العقلي، لأنّ مصدرهما الإرادة الذاتية. فالذي يؤمن بالله ورسله وكتبه، ولكنه في فقرة واحدة من مئات الفقرات يحاول التشريع فيها، ومشاركة الإله على أي نحو كان لغوياً أو فقهياً أو كلامياً فقد كفر بتلك الفقرة من التشريع. وإذا بقي على هذا الحال فهو عند الله كافر، لأنّ الله قد سنّ قاعدة ذكر فيها أن الكفر بالبعض كفر بالكلّ، وجعل إبليس مثلاً لذلك حينما قام بتفسير خاص وذاتي المنحى لعملية خلقه وخلق آدم. في حين كانت غايته تحقيق (وجوده الذاتي) مقابل (الوجود الذاتي) للإله)) وأضاف:

((وإذن فمعرفة الإله شيء وطاعته شيء آخر. فيظهر من ذلك، أن الإيمان الفعلي لا يبدأ إلاّ حين التخلّص من تلك الذاتية أي من لحظة التسليم التي تعني الإقرار باللاشيئية والفناء. وهذا الفهم هو الفهم الذي حاولتْ الاعتباطية القضاء عليه.))

ونتوقف هنا عند نقطتين: الأولى هي ما عبّر عنه النيلي (مشاركة الإله لغوياً) معتبراً أن النص القرآني نص فريد لا ينطبق عليه كلام البشر ولا يمكن أن يكون مثل كلامهم لأنه كلام خالق البشر، وكلام الخالق لابدّ أن يختلف عن كلام المخلوقين بل لا يماثله على الإطلاق، وعلى المخلوقين اكتشاف ذلك من خلال السعي والجدّ والاجتهاد.

أما النقطة الثانية فهي الامتثال لهذا الخالق وتنفيذ أوامره وعدم الاكتفاء بمعرفته فقط، أو قل عدم تجزئة الأوامر وتنفيذها انتقائياً ــ كما يقولون ــ فهذا يروق لي وذاك كلا وهكذا مما يؤدي إلى تفريق الدين وتمزيق نسيجه، وأخيراً القضاء عليه.

وهنا، يضيف النيلي قائلاً:

((ومن المعروف أن هذه العملية ليست عمدية على مستوى الأفراد فرداً فرداً بصورة دائمة. فالاعتباطية وهي(فكرة عامة) وعقيدة معيّنة تجنّد لنفسها أعداداً كثيرة تقوم بخدمة الفكر بصورة غير واعية أحياناً. وتقوم الاعتباطية بمداعبة اللاوعي والرغبات الكامنة في النفس لتحقيق ذاتها بخدمة كبيرة تؤمن بها

مثلما يفعل الشيطان تماماً. والناس ينجرفون في الفكر بطريقة أسهل وأسرع من الانجراف في السلوك الذي ينعكس عن الفكر. فالانجراف في الفكر هو البداية لكل سلوك خارجي يظهر على الساحة.))

ويعتقد النيلي أن من مظاهر هذا الانحراف في الفكر هو عدم الايمان بنظريته في الحل القصدي للغة، أي عدم الإقرار بمنهجية (اللغة الموحدة) التي وضعها للوصول إلى هذه الحقيقة، وهي نظرية جاهد الرجل كثيراً من أجل إثباتها في كتابه (اللغة الموحّدة). المؤسف أن الكتاب لم يُفهم، وإنّ عُمر الرجل لم يُسعفه لتوضيح نظريته، لذلك بقي الكتاب والشرح معلّقان في الهواء بانتظار من يقوم بهذه المهمة الصعبة.

ووِفْق النيلي أيضاً ومنهجه اللفظي، يرى الرجل أن القرآن الكريم احتوى على أكثر من خمسين مفردة عربية من لغات القبائل، وهذا ــ حسب فهمه ــ يثبت أمومة اللسان العربي للألسن كافة، ويضيف:

((ولكننا لا نحتاج لإثبات ذلك لمثل هذا التخريج لثبوته نفسه في معاني الأصوات ومطابقتها في مئات التعاقبات لنظام اللسان العربي الذي أظهره البحث في كتاب(اللغة الموحدة) والذي وقعت فيه النسبة الأكثر استعمالاً على المعاني الحركية الأصلية للأصوات، علاوة على النظام الكتابي المتميّز جداً الذي حافظ

على العلاقة بين الأصوات وبين حرف الألف ومظاهرة الأربعة)). الكتاب ص236.

ويوضح النيلي في مكان آخر من الكتاب أن كلّ تعاقب صوتي هو كائن مستقلّ قائم بذاته فيقول:

((إن الحلّ القصدي يمثل الدلالة المسبقة لكل لفظ في أي لغة في العالَم من خلال تحديده لمعاني الأصوات. وبالتالي فكل تعاقب صوتي هو كائن مستقلّ قائم بذاته، إذْ لا يشبهه أي تسلسل آخر للأصل ولا يحلّ محله أيّ عضو آخر. وهو بمجموعه يمثّل حركة مجسّدة ذات صورة حركية)) ص246.

ويضرب النيلي مثلاً على نموذج الأصل اللغوي بكلمتين لافتتين هما كلمة (حرد) التي تعني الخشونة والصلابة وكيف صارت (هارد) في اللغة الانكليزية حيث تحولّت (الحاء) إلى (هاء) لتشير إلى نفس الحالة المادية التي توصف بها المادة الصلبة كالحجر والجوز والصخر ثم تنقل بعدها إلى الحالة المعنوية كصعوبة الامتحان وصلابة الارادة وعسر الحياة فتقول مثلاً: الامتحان صعب The exam is hard أو الحياة عسيرة Life is hard أو ان الرجل لديه ارادة صلبة He has a strong will وهكذا.....

ومثل ذلك كلمة (ملّة) بفتح (الميم) وهي (الرماد الحار) وصار العرب يقولون (أكلنا ملّة) ويَعنون به نوع من الخبز يوضع على النار لا في التنور.

بعدها، ينتقل النيلي إلى أصل آخر في كلمة أخرى وهي كلمة (Maker) باللغة الانكليزية فيقول:

((ومن نتائج ذلك أن فهم الأصل اللغوي سوف يتغيّر في الحلّ القصدي. فالحركة العامة للأصوات واحدة وعند محاولة فهم لفظ مثل (Maker) مع ما يقابله في العربية، فليس المقابل هو (صانع) بل الأقرب في أداء ذلك التعاقب يكون بين الميم والكاف والراء. وسوف تجده في اللغة العربية في لفظ (مكْر) أو (ماكر) وهو الذي يجد لكل أمر مخرجاً لأن المكر ليس صفة ذميمة، بل براعة وإتقان وسعة معرفة سلباً وإيجاباً سواء بسواء لقوله تعالى: ﴿والله خير الماكرين﴾آل عمران 54)).

ومثل ذلك كلمة (نوبل) Noble الانكليزية التي تقابلها كلمة (نبيل) بالعربية. وهكذا كلمة explorer التي تعني بالعربية (رائد) أو مستكشف و (raid) في الفرنسية، وصارت (read) أو (reader) القاري أو (المستطلع) وأصلها جميعها بلفظتي (دال) أو (راء) واللتين اجتمعتا في كلمة (door) أيضاً أو باب بالعربية أو (در) بالفارسية وجميعها تعني المدخل للاكتشاف، أو الدخول في جديد أو إلى جديد.

ويغرق النيلي أعمق من ذلك في شرح وتوضيح صوتي (الدال) أو (الراء) وموجاتهما وذبذباتهما وحركتهما إلى أن يقول مختتماً:

((إن اكتشاف الحركة العامة للأصوات وقيمتها المسبقة أدى إلى تأكيد وتوحيد القيمة المسبقة لكل تعاقب، وبالتالي فقد سقط الترادف والمجاز تلقائيا)) مضيفاً:

((وإذن فيتوّجب الآنْ التمييز بين الاستعمال القصدي للتعاقب والاستعمال الاعتباطي)) الكتاب ص 250.

ولم يتوفّر النيلي في نهاية استنتاجاته واكتشافاته لنهجه اللفظي وتعاقبه الصوتي على شيء أكثر من الهجوم على الجرجاني زعيم تيار الاعتباط الأممي وعبثه باللغة من خلال تأسيس البلاغة وعلم البيان وإظهار كنوز القرآن وأسرار وجمال الأدب فيه والتي لم يسبقه أحد في كشفها ــ حسب تعبيره طبعاً ــ فقال:

((فالجرجاني هو حقاً واضع هذا الفن ومؤسسه، ويراه المنهج اللفظي أول من أدخل كلام الخالق مع كلام المخلوقين في نفس العبارة، وأشار اليهما بنفس الإشارة، ووصمهما بنفس الكناية أو الإستعارة. وأجرى عليهما معاً تقسيمه، وشملهما بنفس القواعد لصحيح الكلام وسقيمه، حتى صار يخرج من الآية إلى الشعر، ومن قول الجاحظ إلى الآية (أي قول الله) بلا حرج، فانخدع بمكيدته علماء الأمة طوال العصور.)) الكتاب ص266.

إذن ــ حسب نظرية النيلي اللفظية هذه ــ إن علماء الأمة خُدعوا بالجرجاني طوال العصور وبالأحرى خُدعوا بمنهجه قبل أن يعرفوه أو قبل أن يأتي إلى الدنيا.

ناهيك عما تركه ويتركه منهج الجرجاني من تأثيرات نفسية على القراء والأمة، حتى وصل إلى قمة غضبه فقال:

((فتباً لهذا الجرجاني الذي جعل كلام الخالق وكلام المخلوقين على حد من البلاغة سواء))الكتاب ص278.

ثم يضرب مثلاً على تخبّط الجرجاني هذا في فهمه لحديث النبيﷺ عن (خضراء الدمن) وقولهﷺ في أنها (المرأة الحسناء في منبت السوء)!! وكيف أن هذا المثل إنما هو مثلٌ لخضراء الدمن وليس للمرأة الحسناء كما فسّر الجرجاني الحديث وقلب الموضوع، وهكذا مع كل بدعة أو ضلالة قالها الأكابر وأضلّوا بها الناس.

ونفس الوهم جاء مع فهمهم للذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها وزعْم الجرجاني أن التشبيه في الآية معقودٌ بين اليهود والحمار فيما يرى النيلي أن ((التشبيه في الأصل بين مثليهما في (الحمل) وجاء بالتعدي إلى الأسفار لإتمام الصورة وإكمال خطوطها من حيث أن الذين (حمّلوا التوراة) هم ألعوبة بأيدي الطغاة والجبابرة في كل مكان وزمان لا ينتبهون من غفلتهم مهما تبدّل القادة. فكذلك مثل الحمار دائم الأسفار وراكبوه كثر لا يتبدّل شأنه في الأسفار بتبدّلهم)) الكتاب ص284.

النيلي والطور المهدوي

على جزميته الصارخة واقتحاميته المفرطة في التماهي مع كتبه ومنهجيته، افتتح النيلي كتابه الموسوم بـــ (الطور المهدوي ــ تطبيقات المنهج اللفظي للنظام القرآني) بالقول:

((يُعتبر كتاب الطور المهدوي أول كتاب من نوعه في تأريخ الأديان والفكر البشري يُعالج النصوص وفق الحل القصدي للغة)).

ولم يفُت النيلي القول بأنّ النبيﷺ ومن إشارات بعض الحقائق ــ حسب تعبيره ــ ((كان يقود بنفسه الاتجاه القائل بقصدية اللغة)) الكتاب ص8.

ولكن العابثين والاعتباطيين الذين أرادوا ترسيخ الفكر الاعتباطي والجبرية، وبسبب جهلهم وعجزهم أحياناً، ذهبوا إلى القول:

((إن التناقض هو شيء في طبيعة القرآن من حيث أنه تبيان لكلّ شيء وأنّ والتناقض شيء من الأشياء وبالتالي فهو ينطبق على أكبر قدر من التناقض.....)) الكتاب ص8. وهذا النص منسوب إلى الأنباري ((وما زال عدد كبير من علماء المذاهب كافة ومنهم أسماء شهيرة يأخذون بهذه النظرية إلى حدّ كتابة هذه السطور)).

ولتوضيح هذه النظريات العرجاء أضاف النيلي وبلا فاصلة:

((من جهة أخرى ناقض الاعتباط النص النبوي الذي أهمل ناقل الحديث وأكّد على وجوب عرض الحديث على القرآن للحكم على صحته أو خطأه. وهذا ــ والقول للنيلي طبعاً ــ هو المتوقّع من حكمة النبيﷺ إذْ ليس من المعقول إرجاع النصوص إلى الرجال وإنما وقعتْ الفتن والأكاذيب منهم (أي من الرجال) وسُفكت الدماء بينهم، وإنما يمكن إرجاعه إلى مقياس لا يُخطئ ولا يتغيّر وهو القرآن، فخالف الاعتباط النص النبوي وأسس علم الرجال ووضع مئات بل ألوف المجلدات (لهذا العلم) وراح يبحث حول صدق وكذب رجاله)).

لم يتحمّل النيلي طبعاً هذه (الجناية) بحقّ القرآن فراح يقول:

((وبصفة عامة لا يمكن الاعتقاد أن ذلك كله وقع سهواً وخطأً لمدة أربعة عشر قرناً، ولا تختلف المؤسسة الدينية في هذا العمل أي اختلاف جوهري بين مذاهبها ومدارسها، فهي في الحقيقة مؤسسة واحدة تعيش على الاختلاف والتناصر لأنه هدفها من هذه العملية كلها)) كتاب ص10.

إذن هذا هو النيلي مرة أخرى في جرأته واقتحاميته ومنهجيته، بدون أية مجاملة أو التفات إلى ما يمكن التساهل فيه

عن قول الرجال أو بعضهم على الأقلّ، ولو من باب **(القرآن حمّال وجوه)** وقد يتيه فيه بعض الرجال براءةً أو جهلاً، وليس قصداً، أو عمداً فيجنح هذا الرجل ويسعى لآخر كي يسعفه من حيرته وبالعكس.

وعن اعتداده بنفسه أو ثقته بما توصّل إليه في حلّه القصدي يواصل النيلي توضيحه وبلا تردّد:

((فقد قدّم الحل (ويقصد الحل القصدي) أعظم البراهين في تأريخ اللغة حينما كشف عن القيمة الحركية الفيزيائية للأصوات وحدّد نظامها التعاقبي بما يُفسّر النظام الاشتقاقي برمّته لكافة لغات العالَم وطلب من جميع المختصّين إجراء التجارب والتطبيقات على جميع الألفاظ قديمها وحديثها)) مضيفاً:

((فالحلّ القصدي يمتلك من الأدلّة ما يحدّد الكلمات التي نطق بها الخلق بينما لا يمتلك الحلّ الاعتباطي دليلاً واحداً على نظريته سواء في مؤسسته الثقافية أو الدينية))الكتاب ص13.

أهم ما أراد الكتاب توضيحه

لعل من أهم ما أراد الكتاب تجليته في اعتماده على المنهج اللفظي هو فهمه الجديد للآخرة والقيامة ويوم الدين والقائد الموعود المخلّص، وانتزاعه لفهمه هذا من خلال التحديق والتدقيق في حروف وكلمات وألفاظ الكتاب المقدس.

فعن الحياة الأخرى مثلاً، والتي تختلف عن الآخرة حسب فهمه يقول النيلي:

((وقد تقول من أين جئت بهذا التصوّر العجيب عن الحياة الأخرى؟ أقول لأننا لم نكن نفهم اللغة التي كلّمنا بها الله، ولم نفهم ما شرحه لنا الرسل والأنبياء (صلوات الله عليهم أجمعين). ولم نحاول أن نفهم الأمر لأننا وقعنا ضحية لأولئك الذين هدّدهم الله بهذه العاقبة المزرية، فقاموا بتقديم الحل الإلهي لنا بطريقتهم، وبما يلائم أطروحتهم. لقد فهمنا الحلّ الإلهي من خلال أعداء الله)) الكتاب ص178.

أما خلاصة ما توصّل إليه النيلي حول هذا الموضوع فهو أننا نعيش على هذه الأرض، وأن الآخرة على هذه الأرض، والقيامة على هذه الأرض، ويوم الدين (أي إقامة الدين) على هذه الأرض، وأن الموتى يرجعون على هذه الأرض بعد أن يُخرجوا منها يوم الدين فيعاقب الأشرار منهم ويُثاب الأخيار في جنةٍ طيبة عليها نفسها، وتحت قيادة قائد رباني كبير يصفه النيلي بأنه وعد السماء لأهل الأرض، كل أهل الأرض من كل

الطوائف والأديان والمِلل، وبه لا بغيره تُحكم الأرض بالعدل، وينتصر المستضعفون على المستكبرين مرّة واحدة ــ كما وعدهم الله في محكم كتابه ــ وأن الدين لابدّ من إقامته على الأرض ــ كما نصّ الكتاب أيضاً ــ وأن الأخرى هي غير الآخرة، فالآخرة هي نهاية المطاف عند أهل الدنيا، أما الأخرى فتأتي بعد الآخرة، وأن الجمْع بين الإثنين خطأ وقع فيه أعداء الله وحاولوا إقناع الآخرين بذلك على امتداد قرون.

أما أعداء الله هؤلاء فيصفهم النيلي بقوله:

((إن أعداء القائد الموعود ليسوا شعباً بعينه ولا أمةً بعينها ولا أصحاب دين معيّن بعينهم. إنّ أعدائه هم المنحرفون الذين يعبدون غير الله من كل دين وملّة ومكان، وإن أعوانه هم الذين أسلموا لله من كل ملّة ودين ومكان، فهو قائد عالمي يؤمن بجميع الأنبياء والرسل ﷺ ولا يفرّق بين أحدٍ منهم ويقيم جميع ما أُنزل...)) إلى أن يقول:

((فنحن لا نقول أن المهدي عليه السلام يهلك اليهود أو ينتقم من النصارى. بل نقول أنه يهلك كل من لا يعبد الله أو أتّخذ من دونه وثناً أو هوىً أو مالاً أو أحباراً أو رهباناً أو رجال دين، أو أصناماً ظاهرةً، أو أصناماً خفيةً..... فالقائد الذي بشّر به الأنبياء جميعاً ليس قومياً ولا يهودياً ولا نصرانياً ولا هو من الأرض الجديدة ولا من أرض الميعاد. إنه رجل أسلمَ وجهه لله مثل جميع الأنبياء، ويضرب الخلق جميعاً حتى يسلموا لله وحده.....)) الكتاب ص23-24.

سبب ضياع المسلمين

أما عن سبب عدم قدرة المسلمين على الاهتداء بهدي القرآن والسنّة فيشير النيلي إلى نقطتين مهمتين: الأولى هو حرق السنّة النبوية (أي الأحاديث) مرتين على يديْ خليفتين بعد رحيل الرسول مباشرة بذريعة قطع طريق اختلاطها بالقرآن، الأمر الذي أدى إلى عدم تدوينها إلاّ بعد مئتي سنة ووفاة معظم الصحابة الأجلاء الرواة الذين عاشوا مع رسول الله وشهدوا سيرته وسمعوا أقواله.

((فكانت النتيجة أنْ اشتغلت آلاف الأقلام المأجورة بتبرير أعمال السلف واعتبارها أعمالاً صالحة. حتى تلك الحروب التي غرقوا فيها بالدماء وأغرقوا غيرهم فقد بُرّرت على إنها اجتهاد بعضهم باتجاه بعض وأنهم جميعاً على حق)) أي على نظرية (عدالة الصحابة) السيئة الصيت.

من هنا ــ والكلام كلّه للنيلي ــ ((امتلأت كُتب التأريخ والتفسير بما يُرضي جميع الفئات والأذواق والمذاهب، فبإمكان الشيعي الحاذق أن يأتي بآلاف الأحاديث من كتب السنّة في فضل علي عليه السلام على جميع الصحابة، ويتمكن السني أيضاً من الإتيان (بمثل ذلك) عن الشيخين أو عن عثمان! ففي صحيح

البخاري تجد مثلاً فضل الجهاد والمجاهدين، لكنك تجد أيضاً أن الجلوس في الدار أفضل من الجهاد))

وهكذا حتى يصل النيلي إلى قمة تبرّمه وامتعاضه، فيقول:

((إذا كنتَ من أصحاب الجمل وأصحاب معاوية أو أصحاب يزيد أو أصحاب الحسين أو أصحاب عليّ، وإذا كنتَ من المعتزلة أو الشيعة أو السنّة أو برأسك أي فكرة أو بدعة، أو ضلالة فإنك تجد حتماً في تراث الأمة ما يؤيد وجهة نظرك ويحيّر خصومك، ويعطيك الحجة على أقرانك)) الكتاب ص72.

ولم يجد النيلي مسخرةً أكبر من تلك الذلك سُمي اجتهاد الصحابة وجعل من الأمة الإسلامية مهزلة تضحك عليها الأمم:

يـــا أمـــــة قد ضـــــكت من جـــــــهلـــــها الأمـــــم

لأنها ــ كما يرى النيلي طبعاً ــ فقدت عقلها ورشدها وأضاعت المقاييس وضلّت وأضلّت ﴿**وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السبيل**﴾ إلى أن يقول ساخراً ساخطاً:

((فكيف يقول البعض أن الصحابة اجتهدوا فتحاربوا؟ أهناك اجتهاد بعد نزول البيّنات؟ وما معنى البيّنات والنور والهدى والتفصيل ــ التي جاءت في نصّ القرآن ــ إنْ كان لا يحمل الوضوح الكافي حتى لحقن دمائهم؟!))

ويؤكّد النيلي أيضاً في حديثه هذا عن الطور المهدوي بأنّ المهدوية ليست ضرورة إنسانية وحسب ولا شعوراً وجدانياً يعمّ النفوس البشرية، ولا أملاً يراود الشعوب في العالَم، كما أنها ليست أماني وآمال دينية، ولا هي تنبؤات محضة، إنها حتمية تأريخية وضرورة كونية وغاية ربانية وخطة موضوعة منذ ابتداء الخلق صعوداً نحو الطور الأسمى والأعلى على مر الوجود. وهو ما قصده النيلي بالآخرة أي آخر حلقة من حلقات الدنيا حيث يُظهر الله الدين كله ويستخلف المستضعفين الصادقين الذين أوعدهم بخلافة الأرض ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ**﴾ وبغير ذلك فلا دين يظهر كله، ولا عدل يسود على الأرض ولا خلافة للمؤمنين، ولا نصرٌ يعزّهم ويخذل أعدائهم، ولا فتْح من الله ولا دخول في دين الله أفواجاً، ولا هم يحزنون.

أين نصر الله في سورة النصر؟

وحين يأتي الرجل إلى سورة النصر في القرآن الكريم ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ* وَرَأَيْتَ النَّاسَ... ﴾، وعلى طريقته الجريئة في الاقتحام يقول: إن هناك مؤامرة واضحة المعالم رُسمت خطوطها بعد وفاة الرسول على هذه السورة ومدلولاتها الشمولية، وكيف إن المفسرين قالوا إنها نزلت بشارة بفتح مكة وإخبار بغيبٍ قد تحقق، فيما تأريخ النزول يقول بل يؤكّد أنها نزلت بعد فتح مكة بأكثر من سنة! وهو مثبّت في كثير من المصاحف، فكيف تكون البشارة متأخرة عن البشرى بأكثر من سنة؟!)).

الأغرب من ذلك إن آية الفتح ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴾ فُسّرت هي الأخرى بفتح مكة رغم أنها نازلة قبل الفتح وبصيغة الماضي، فكيف يحصل ذلك أم أن في الأمر لغزاً لا نعرفه؟! يضيف النيلي:

((فانظروا كيف قَلَبوا الأمور كلها بالمقلوب. فصيغة سورة النصر المستقبلية تتحدث عن الماضي، وصيغة آية الفتح التي بالماضي تتحدّث عن المستقبل ليجمعوا كل آيات الفتح حول فتح مكة الذي فتح (أبواباً للمنافقين) فلا فتح بعده ولا فتح قبله)) الكتاب ص99.

هذه التفسيرات المقلوبة تخفي خلفها أهدافاً خبيثة يدركها اللبيب ويعرف أنها تقود إلى الانحراف والتحريف لتأتي على الدين كلّه، فتصبح القيامة يوم بعيد، والحساب يوم أبعد، ورحمة ربك تسع كل شيء. وبالتالي فلا ضير أن ينتهي الدين ولا يبقى منه إلاّ اسمه ومن القرآن إلاّ رسمه ومن المساجد سوى نقوشها، إلى أن تصل الدنيا بوصف أحد النصوص الدينية الأخرى أن الناس يكفّون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأسوأ من ذلك أن يأمروا بالمنكر وينهوا عن المعروف. والأسوأ من كليهما أن يصير المنكر معروفاً والمعروف منكراً، بل أن الجهل يبلغ بهم درجة يرون فيه الحلال حراماً والحرام حلالاً!! كل ذلك لأن الفتح انتهى حاضراً ومستقبلاً، فلا فتح بعد الفتح، ولينتظر الجميع يوماً يعرفون أنه صار بعيداً بعدما تخشّبت القلوب وطال الأمد.

هذا الجهل أو هذا الانحراف يقابله وجود خالد لكتاب الله، لا يتحدّاه أحد ولا يجامل أحداً، وفيه تبيان لكل شيء، لا يناور ولا يخادع ولا يداهن لمن يريد ان يفهم الدين لاسيما وأن كل إنسان ــ كما يقول النيلي ــ ((قادر على معرفة الحقيقة بكل يسر وسهولة، ولهذا لن يدخل النار أحد لا يستحق ذلك. ولن يدخل الجنة أحد من أهل النار، كما لا يوجد هناك مكان ثالث خاص بالجهلة، لأنه لا يوجد في هذا الموضوع جهلة بالمعنى الحقيقي

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ الاسراء13-14.

أما نسبية الحقيقة التي يقول بها بعض الناس فإنما هي مسخرة أخرى، وأن المثل السوفسطائي الذي يضربونه عن الحيوان الذي يُنظر إليه من جوانب متعددة، وكيف أن أحدهم يقول أنه أسود والآخر يقول أبيض حسب جانبه. هذا المثل فعلاً مسخرة، فالحيوان ليس أسوداً ولا أبيضاً وإنما هو أسود وأبيض لمن دار حوله وعرف حقيقته.

الأكثر مسخرة هو (الابتكار العبقري) لـــ (أنجلز) السوفسطائي الآخر، الذي قال فيه أن واحداً زائد واحد ليس اثنين دائماً، ضارباً مثلاً على ذلك بمتر مكعب من الماء زائداً متر مكعب من التراب، والصحيح أن متر مكعب من الماء زائد متر مكعب من الماء يصبح متران مكعبان رغم أنف أنجلز وأنصاره، لكنهما خُلقا فصار الذي صار.

ويضرب النيلي مثلاً آخر على جنون الإنسان وقلّة عقله وكيف أنه يمارس جنونه بنفسية مريضة فيقول:

((ألا ترى بعض الأغنياء يجمع المال ويستمر في جمعه مع أن ما لديه يكفي مدينة كاملة؟ فلماذا يفعل ذلك وهو يعلم أنه سيموت ويخلّف المال وراءه؟ فهو يخاصم ويحاجج ويستخدم

القانون ليحصل على كمية من المال يضيفها إلى رصيده الذي لا يستطيع ولو تضاعف عمره ألف مرّة أن يستهلك جزءاً منه)).

وفي التفاتة ذكية حول أولئك الذين يكذبون بيوم الدين ويستبعدون حصوله في الدنيا ويقذفون به بعيداً إلى الآخرة الأخرى حسب فهمهم، وقيام الاعتباط بتوظيف هذه الفكرة توظيفاً بائساً الأمر الذي أدى إلى إبقاء كل شيء على ما هو عليه حتى ذلك اليوم.

يقول النيلي:

((إنّ الفئات المكّذبة ترغب بالحفاظ على الوضع الذي هي فيه، وتكمن قوتها في ضُعف الرعية واختلافها، فهي تزرع بذور الاختلاف في الرعية، وتزعجها وحدة الشعب وتَوحّده ولو على الباطل، ولذلك تكره الأحزاب السياسية ــ خلافاً لما هو ظاهر عنها ــ، تكره دخول الشعب كله في الحزب الحاكم لأنّ ذلك معناه تحقّق العدل بالقوة والإكراه ..... فتقوم بمهادنة الشعب، وتستخدم جميع أساليبها لزرع فئات وتيارات مناوئة لها، فهذه الفئة تكمن حياتها في الاختلاف والتناحر بِشرط ألاّ يفضي إلى سقوطها، فلا التوحّد والاستقرار يخدمها، ولا وجود المعارضة الشديدة يخدمها، وإنما الحال الذي هو بين بين))

ويضيف:

ومثل هذا الحال لا يتمّ ((إلاّ بتمشية النميمة في عروق الجمهور)) وذلك بضرب عصفورين بحجر واحد ــ حسب تعبيره ــ الأول: زرع بذور الاختلاف والتناحر وتثبيط عزيمة الناس برفع التكليف الشرعي عنهم، والآخر الاستحواذ على الأمر والنهي وتفسير آيات الكتاب على هواهم وتقديمها للجمهور.....))الكتاب ص401.

ولعلّ أكثر ما أشار إليه النيلي من إشارات في كتابه هذا هو قصة يأجوج ومأجوج في رحلة ذي القرنين، وكيف أن صاحب الميزان افترض وجود أكثر من مليون صورة محتملة لهذه القصة، فيما افترض النيلي أنها رحلة فضائية في الكواكب، وإن ذي القرنين هذا هو جلجامش المعروف في قصص التاريخ ومدوّنات الألواح الطينية الغارقة في القِدم، وأن (عيّاش) الذي هو جلجامش في بعض هذه القصص هو صاحب الرحلة بعد أن أعدّ لها عدّتها المادّية الكاملة، وكانت نحو كوكب الزهرة الذي قال أنها السيارة الوحيدة من السيارات التي تدور من الشرق إلى الغرب مخالفةً بذلك جميع كواكب المجموعة الشمسية، وأن يومها يساوي 247 يوماً من أيامنا.

ورغم أن الرجل لم يجزم بذلك ولكنه أتى بشواهد علمية جديرة بالتأمل وفصّلها في كتاب خاص نُشر تحت عنوان **(ملحمة كلكامش)** قرأ من خلالها بعض آيات القرآن الكريم

وقارنها بالنصوص الأصلية التي تناولت ملحمة كلكامش في كُتب التأريخ، والألواح التي وردت بخصوصه، وكانت استنتاجاته دقيقة للحدّ الذي يلفت النظر ويثير الدهشة، نأمل أن يذهب من يرغب قراءة هذه الملحمة وجذورها إلى الكتاب المذكور أو إلى موجز ذلك في كتاب (الطور المهدوي) في الفصل المتعلّق بهذه (الأسطورة) العجيبة الغريبة.

المنهجية النقدية بين النيلي ومناوئيه مع كتاب (الردّ على النيلي) للشيخ الركابي

في جولتنا مع النيلي ونصوصه، وبعد إشارتنا السريعة إلى منهجيته العراقية الحادّة في النقد، نأتي الآن إلى منهجية مناوئيه لنقرأ تعاطيهم ومنهجيتهم مع أفكاره وكتبه وكيف تقحّموها بشكل لا يقلّ حدّية وتطرفاً وتحاملاً، وهو ما سميناه المنهجية المتطرفة، أو الاقتحامية العراقية الحادة.

نبدأ أولاً بكتاب **(الردّ على النيلي)** لسماحة الشيخ **(صباح الركابي)** لنرى كيف راح هذا الناقد يبرّر هجومه لشديد على النيلي وتحامله عليه، قائلاً:

((أرجو من الأخوة الأعزّاء أن يعذروني لما استخدمتُه من لغة مع النيلي من لهجة غير معروفة عني بهذه الحدّة، وكان السبب وراء ذلك هو الأسلوب الذي استعمله النيلي مع العلماء كافة ووصفهم بالملحدين والمحرّفين والاعتباطيين وغيرها من الصفات التي لا تليق بمقام الإنسان فضلاً عن العلماء الأعلام)) الكتاب المذكور ص5.

إذن، يبرّر سماحة الشيخ الركابي ردّه الحاد هذا بقوله:

((فكان أن قابلتُه بطريقة ليس لإيقافه عنها لأنه ميّت، وإنما حتى لا يسلك غيره من القصديين (أي أصحاب النيلي) نفس الأسلوب مع الآخرين)).

وكأن الرجل يقاتل مع قبيلة اسمها قبيلة العلماء، أو معسكر اسمه معسكر رجال الدين، ويصطف إلى جانبهم ضد (عشيرة) القصديين بغضّ النظر عن جوهر الصراع بينهم وبين النيلي إنْ كان ثمة صراع فعلاً بين الطرفين.

هذا أولاً. وثانياً كأن الرجل بهذه الإضافة قد أبرأ ذمته مع النيلي (لأنه ميت) وما درى أن القضية لا تتعلّق بحيّ أو ميت وإنما بمنهج حاد لم يستطع الانسلال منه على امتداد كتابه، وليته اكتفى بما أشار إليه بعد صفحات، وكيف اعتمد على القاعدة العقلية التي تقول: (إذا ورد الاحتمال بطل الاستبدال) حيث ناقش الرجل نقاشاً علمياً وفقهياً وهو قادر على ذلك بالتأكيد رغم بساطة أسلوبه. ولكنه عاد بعد قليل إلى عصبيته (العشائرية) ناقماً ساخراً منتقماً.

ورغم أن الشيخ الركابي وصف الرجل بأنه سليم الفطرة، وأنه (أي النيلي) ((كان يريد وجه الله))ــ حسب تعبيراته ــ ولكنه اتّهمه بعد لحظات بالتدليس والخداع والمكر، وأنه (كان مدفوعاً من قِبل أعداء الدين والمذهب و.... و...) الكتاب ص19.

وفي غمرة حملته النقدية العشائرية الصارخة لم يستطع سماحة الشيخ الركابي تحمّل الأول حتى في حبه للعرب والعروبة واللغة العربية، فراح يقول وبلا تحفظّ وبمنتهى القسوة والتحامل، ناسياً ما قاله قبل قليل عن فطرة الرجل السليمة، وكيف كان يريد وجه الله بأفكاره ونظريته.

أقول: نسي الرجل كلامه الأول وراح يقول:

((يبدو أن العمل مع البعثيين قد غسل شيئاً من عقلية النيلي وجعله يفكر بالعروبة على الطريقة البعثية والأمة العربية ذات الرسالة الخالدة والتي بها وفيها تمّ قتل الإنسان وامتهانه وشهادة السيد محمد باقر الصدر والغروي والبروجردي ومحمد صادق الصدر والعلماء ورجالات الفكر والأدباء)) الكتاب ص142.

ولا أدري لماذا أتى الشيخ بهؤلاء الشهداء هنا وأين هم من الرجل الذي يريد سماحته نقده ؟ وما علاقتهم بموضوع البعث ؟ اللهم إلا الإنجرار غير الموفق وغير المطلوب للمنهجية النقدية العراقية التي نريد اجتثاثها أو التخفيف منها على الأقل.

وفي مكان آخر وبعد عدة صفحات، راح الشيخ متحاملاً مرة أخرى على الرجل رغم إقراره بأنه ((يتمتع بعقلية ممتازة ــ حسب تعبيره ــ، ولكنه ومع الأسف استزلّه الشيطان فصدّه عما كان يجب أن يكون)) معترفاً بأن النيلي ((لو أتعب نفسه

وخاض في الاختلافات التي جاء بها القرآن لأعطانا لغة قرآنية جديدة)) الكتاب ص148. وهذا هو ما فعله أو حاول النيلي فعله من جوهر بحوثه وأفكاره.

حتى المثال الذي أتى به النيلي عن القصدية الدقيقة في الهندسة القرآنية في الآية الكريمة ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ**﴾ بتقديم (أحدٌ) على (استجارك) لم يرق لسماحة الشيخ فجاء بغيره، أي بمثال آخر أو مثالين بلا موضوع مستشهداً بآيتين أخريتين: الأولى﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ والثانية﴿**وإذْ ابتلى إبراهيمَ ربُّه**﴾ مع إن استدلال النيلي أظهر بكثير على مراده من استدلال سماحة الشيخ، إن لم نقل إن الآيتين الأخيرتين اللتين استدلّ بهما الأخير يمكن قراءتهما قراءتين أخريتين بتأويل آخر قد لا يروق للعلماء ورجال الدين، ولا يروق للّغوين والنحويين، والعاقل يفهم.

وفي معرض تعليق الشيخ على السيد النيلي حول تحامل الأخير على المفسرين الذين قال أنهم (تربّعوا) على عرش مملكة التفسير وتركوا العامة تذعن للأمر الواقع وتستسلم لهم وتسلّم قيادها بأيديهم و و.....)) يردّ الشيخ بتحامل أكبر ومنهجية أقسى وغير منصفة عبّرت عن نفسها بالتعليق الاستنكاري الغاضب التالي:

((وما العيب في الأخذ بكلام أصحاب الاختصاص؟ أليست سنّة مطّردة في كل العلوم)) ثم انتقل غاضباً إلى الرجل مرة أخرى ليخاطبه في وجهه (وهو ميت) قائلاً: ((ألم تكن عند صدام من الموالين له فبعثك إلى السوفييت لتتعلم منهم؟ جرياً على عادة الحكام؟ وهي عادة مطّردة ببعث من هم أقرب إليه)) الكتاب ص183.

وإذا كانت التعليقة الأولى عن أصحاب الاختصاص صحيحة، فما هو مكان التعليقة الأخيرة عن صدام والسوفييت والبعث والإرسال والتعلم منهم؟! وإذا كنا سلّمنا بأنّ المرحوم النيلي كان أُرسل فعلاً للدراسة هناك لأنه كان طالباً متميزاً وربما كان صدام هدّده بذلك، فما علاقة الرجل بصدام وما علاقة الفكر بالسياسة هنا؟ أو العلم بالسياسة وماذا حصل الأخير من الأول أو بالعكس؟ أي ماذا حصلا من بعضهما؟ والتاريخ القريب لم يحدّثنا عن شيء من هذا القبيل على الإطلاق، والرجلان رحلا ولهما ما لهما وعليهما ما عليهما!!.

هذه هي المنهجية المتطرّفة التي لا تريد أن تعترف للآخر بأي فضل، وإذا اعترفت فهي مكرهة، وهذا اعتراف ليس فيه فضل.

اعتراف: النيلي عقلية وقّادة

يعترف الشيخ الركابي هنا قائلاً:

((ومع أني أعتقد أنه (أي النيلي) ذو عقلية وقّادة وكان شعلةً تتوهج لإنارة الطريق، ولكنها أحرقتْ واحترقتْ لسوء استخدامه لهذه الشعلة.....))الكتاب185. مستدلاً على ذلك بطغيان (الأنا) عند النيلي وكيف أن منهجه لا يختلف عن المنهج البعثي الذي يقول ــ حسب الركابي ــ: ((إن تكن بعثياً فأنت معنا، وإن لم تكن فأنت خائن وشيعي وصفوي وأصلك من الهند.....)) الكتاب ص185. إشارة إلى اتهامات صدام الشهيرة وتحامله على الشيعة إبّان انتفاضتهم عليه عام 1991.

وهكذا وعلى امتداد كتابه، ترى الشيخ الركابي يرفع شأن النيلي فكراً ووعياً وفطرة سليمة وعقلية وقّادة لكنه بعد لحظات يكبسه كبسة (عراقية) (خزعلية !) ليضعه أسفل سافلين وهو لا يدري، حتى إذا وصل إلى منتصف الكتاب الصفحة 204 تجده يتأسّف على النيلي وكيف أن المسكين ــ (المبعوث من قِبل صدام) و (الدارس عند السوفييت) (محبّ العرب) ــ وضع نفسه في قائمة (الكرعاوي وأحمد صالح وكتائب الحق وجند السماء وجماعة كوبونات النفط والذهب الأسود) مع أنه ــ حسب الركابي طبعاً ــ ((**من أسرة مؤمنة شريفة عفيفة**

معروفة عندنا، إضافةً إلى خلقه هو بالذات ــ حسب تعبيراته ــ)) ((إلا إن إبليس ــ يردف النيلي بلا فاصلة ــ:قويّ على من ضعف، ضعيف على من قوى))!!

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله الذي يقوّي الضعيف ويضعّف القوي حسب مشيئته لا إرادته طبعاً، لأنه تعالى يشاء للعبد أن يكذب ولكنه لا يريد منه ذلك.

هذا مع العواطف والانفعالات، أما مع الأفكار والعلم واللغة، وفي آية الرواسي تحديداً التي علّق عليها سماحة الشيخ والتي أبدع فيها النيلي، فإني أرى أن الناقد لم يفهم شرح النيلي على الإطلاق وأنه لم يوفّق في نقدها، بل راح يتخبط بما ليس له به علم مع الأسف الشديد، متمنياً على قارئي العزيز أن يعود إلى كتابَيْ الرجلين ويتأمل فيهما لاستنطاق هذه الآية الكريمة التي اعتبرها النيلي خير شاهد على منهجه اللفظي وتطبيقاته على النصوص القرآنية الكريمة.

أما خير ما يمكن الاستدلال به على المنهجية العراقية المتطرّفة والمنهجية المضادّة. في شخصية الرجلين فهو إطلاقية الأول على عدم وجود فقه إسلامي أصلاً مصدره الكتاب بشكل فعلي، وإنّ ما يُقال من إن الكتاب هو أحد مصادرهم في التشريع فهو مجرّد إدّعاء (حسب تعبير النيلي)، وردّ الركابي على هذا الادّعاء، بتعليق سالب بانتفاء موضوعه:

((أرأيت الكذب والافتراء على العلماء الذين منهم من أُعدم من أجل الدين، ومنهم من شُردّ، ومنهم من أُعدم أبسط أنواع العيش الرغيد))

لينتقل بسخطه وانفعالاته غير المنصفة إلى خصوصيات المرحوم ويقول له باتهام ظالم بأنه (كان يتمتع بحياة أصحاب الذوات في التصنيع العسكري وتمّ طبع كتابه والله العالم عن نفقة من؟!) الكتاب ص306.

ولا أدري هنا ما علاقة الفكر بالعيش الرغيد وما علاقة الفقه بالتصنيع العسكري، وما علاقة الادّعاء بعدم الأخذ بالقرآن مع إعدام العلماء وتشريدهم وبساطة عيشهم؟! علماً بأنّ معظم كتب الرجل لم تُطبع إلا بعد رحيله، وأن جميع معارفه يقولون أنه عاش فقيراً ومات فقيراً!! وأنه لم يعرف الترف ولم يعرف حياة أصحاب الذوات لا من قريب ولا من بعيد.

نعم، ربما نعطي لسماحة الشيخ الركابي الحقّ في التفاتاته العلمية الناقدة المتعلّقة بأصل المنهج القصدي واللغة الموحدة للنيلي ونتوقّف معه قليلاً متأمّلين في بعض ما أشار إليه، وإنْ كنا نختلف معه في آلية النقد أيضاً وخاصة حين يستخدم السخرية اللاذعة في موضوع رصين، كتعليقه على نرجسية النيلي في بعض مزاعمه الكبيرة وإدخاله العام ضمن الخاص وقوله (أي قول النيلي): فإذا علمت الخاص علمت العام وتعليق الركابي الساخر الموجع على ذلك مخاطباً النيلي المتوفي طبعاً:

((فما عليك إلا أن تتعرف على الرشح لتعرف السرطان والسكري والضغط وكل أمراض العصر)) مضيفاً:

((يا له من إنجازٍ لم يسبقه سابق ولم يلحقة لاحق والخارج عن النيلي مارق، فأشهد أنك طبيبٌ من المهندسين ونجار من الحدادين ومعلم من الفراشين، وأشهد أنك من دعائم القصديين وأركان الهادين ومنية المتصيدين، وإنا لله وإنا إليه (راجعين) راجعون)) الكتاب ص316.

وما إلى ذلك من استهزاء غير لائق وخاصةً بناقد يتصدى لكتاب أو كاتب كبير مثل النيلي رغم تحفظنا على بعض آرائه وجزمياته ونرجسياته التي كنا نتمنى على الشيخ الركابي وغيره أن يبقى معها في نقده ولا يملأ (مجلّده) الضخم بمثل هذه الجمل والعبارات المليئة بالأخطاء النحوية والمطبعية على حد سواء – وإنْ كانت استخفافاً طبعاً –.

كما أننا نقف إلى جانب الركابي في التفاتاته الأخرى على مزاعم النيلي بامتلاكه وثائق سرية على التخريب اللغوي الذي قام به الاعتباط، إذْ يتسائل:

أين هي؟ (أي أين هذه الوثائق) وبأي لغة كُتبت؟ وفي أي عصر؟ ومن يكتشفها؟ وكلنا لسنا معه في تعريضه بصاحبه في كونه لم يستطع اكتشاف حرف الألف ومعناه الصوتي وحركته الفيزيائية إلاّ بعد مرور عدة أعوام، علماً بأن هذا الحرف هو أهم حروف العلّة وإنّ مشتقاته من الكسرة والفتحة والضمة لها دور كبير في تغيير الألفاظ والمعاني فعلاً، وإن الدلالات

الصوتية والتعاقب الصوتي الواحد تتأثر كثيراً وربما جوهرياً بمعاني الألفاظ كما هو حاصل في (بِر) و (بُر) و (بَر) وليست كما سخر الركابي واستدلّ على ذلك هازئاً من مشتقات التمور وأنواعها وأصنافها باللهجة العراقية كالبرحي والخضراوي والبريم والخستاوي والبربن مما يدل على إن الرجل يتحدث في وادٍ والنيلي ونظريته تتحدّثان في وادٍ آخر، ناهيك عن درجة السخرية التي تتحول إلى منهجية ساديّة أحياناً تحاول إيذاء الآخر وتقديم أكبر إهانة ممكنة له.

أما عن عمل الحروف في التسلسل الصوتي واعتراف النيلي نفسه بصعوبة إيضاحها ــ حسب تعبيره ــ وعدم قدرته على توضيح الكثير من المسائل المعقدة في نظريته وتأجيله لها وعدم رجوعه إليها نرى أن الركابي هنا كان محقّاً، لاسيما ومسلسل التأجيلات (النيلية) كان واضحاً في العديد من المسائل الشائكة والمعقدة التي تحتاج إلى إيضاح وإيضاح فوري لا يمكن تأجيله.

أقول: هنا يعلق الركابي محقاً: ((إذنْ ما هي الفائدة من ذكرها؟ إذا كان من الصعب إيضاحها؟)) (ثم ما جدوى عبارات النيلي): ((وسيأتيك، وفي كتاب لاحق)) ثم لا يأتيك ولا كتاب لاحق، ولم يوضحها السابق وأنت ــ والكلام للركابي طبعاً ــ بين السابق واللاحق تتأمل وتنتظر وأخيراً لا أبو علي ولا مسحاته (مثل شعبي عراقي) أي سوء الحظ المنتظر في عدم مجيء الفلاح أبو علي في مواعيده المحددة، وعدم إرساله

المسحاة التي كان المنتظر بأمسّ الحاجة إليها، وفي منهجية حادة لاذعة لم يستطع الناقد الانفكاك منها على امتداد كتابه مع الأسف الشديد.

نعم، كم كنا نتمنى على السيد النيلي تفكيك ألغازه وكشف وثائقه وتوضيح معقّداته قبل رحيله، وخاصة في (اللغة الموحدة) وطلاسمها ورموزها، وكم تمنّينا على الشيخ الركابي التساهل مع زميله الذي قدّم شيئاً بالتأكيد إلى المكتبة العراقية والعربية، خاصة وإن الشيخ يعترف للسيد بأنه سليم الفطرة وذو عقلية وقّادة ونقيّ الذات ومن عائلة مؤمنة معروفة وأنه لا يريد من كتبه إلا وجه الله وما إلى ذلك من صفات جميلة لم يُذهبن عن الركابي منهجيته العراقية الموجعة ضد صاحبه.

أقول كلامي هذا حول ما قدّمه السيد النيلي للمكتبة العراقية والعربية، ولكني أسجّل في الوقت نفسه تحفّظي على حدّيته وتطرّفه هو الآخر في التعاطي مع من يعتقد أو أعتقد أنهم خصوماً لأفكاره ورؤاه قديماً وحديثاً.

مع ردّ سماحة المرجع الأعلى السيد الحسبتي: الفصل في رحلة الكشف

إذا كان كتاب (**الردّ على النيلي**) قد أتّسم بالسخرية والتحامل والاستخفاف، فإن كتاب (**الفصل في رحلة الكشف..**) لسماحة المرجع الديني الأعلى آية الله العظمى السيد الحسني ــ كما سمّى نفسه على غلاف الكتاب ــ قد أتّسم بكثرة الترقيمات والموارد والتنقيطات والأوامر والتعليقات. والنقطة الأولى والتعقيب الأول والتعليق الثاني والأمر السابع والمورد العشرين وهكذا بحيث تداخلت النقاط والموارد والتعليقات مع بعضها البعض لحدّ التشويش والتكرار المتعب، ناهيك عن الانتقائية والبساطة وعدم الغوص في جوهر المطالب والأفكار.

نعم، إن الرجل ابتعد عن السخرية والاستخفاف، واقترب كثيراً من الجدّية والصرامة. فما أن تنتهي المقدمة ذات النقاط العشر، والأوامر السبعة عشر حتى يبدأ الكتاب بالموارد المرقمة بالعشرات وبدون عناوين طبعاً.

ظني أن السيد الجليل لم يكن قادراً على تفهّم ما يقصده النيلي بلغته الموحدة ومنهجه اللفظي كما إنه لم يكن قادراً على التفريق بين اللغة واللسان واعتبارهما شيئاً واحداً، هذا ما جاء في بداية كتابه عندما راح يتحدث عن القوم واللسان وأن

الأنبياءﷺ جاء كل منهم بلسان قومه، وأنهم لا يكلمون الناس إلا على قدر عقولهم.

أما في المورد الأول، والتعليق الأول فقد اقتبس السيد الحسني فقرة تمهيدية من السيد النيلي وقصته مع القرآن والتي جاء فيها:

((كنتُ قد تعلّقتُ بهذا الكتاب (أي القرآن) من الطفولة..... وأحمل كذلك مصحفاً صغيراً لإشباع نهمي من قصار وأواسط السور حينما يعييني فهم شيء من ذلك الكتاب..... يومها ــ والكلام للنيلي طبعاً كما اقتبسه السيد الحسني ــ وبعد قراءة إحدى السور مرات عديدة بصوتٍ عالٍ تسمح به خلوّ الأرض الفسيحة من الناس مترنّماً بها بنغمات عديدة بحسب ما أشتهي. شعرتُ شعوراً قوياً بأن هذا الكلام لا يمكن إلا أنْ يكون هو كلام الخالق حقاً)) الكتاب ص23.

نعم، اقتبس السيد الحسني هذه الفقرة من أحد كتب السيد عالم سبيط النيلي واكتفى بالتعليق عليها بالقول:

((هذا الكلام يكشف التشكيك في نفس عالِم سبيط النيلي وعدم اعتقاده بأن القرآن هو كلام الله تعالى لفترة زمنية حتى حصلت تلك الحادثة التي أشار إليها حيث نشأ منها الشعور القوي عنده بأن هذا كلام الله تعالى، وسيأتي (أي ستأتي) الإشارة إلى هذا العامل النفسي لاحقاً إن شاء الله تعالى))

هذا هو كل ما علّق به السيد الحسني على تلك الجملة، مكتفياً بهذه التعليقة البسيطة على ما أثارته بعض سور القرآن الكريم القصار في ضمير النيلي ووجدانه، وكيف أنها امتلكت عليه كيانه يوماً حينما بدأ رحلته مع مشروعه الطويل، علماً بأن هذه المشاعر والأحاسيس ربما تمتلك كل قارئ مسلم أو مستمع لآيات الله البينات، بمن فيهم السيد الحسني نفسه، وهي التي قال فيها منزّلها ﴿**لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله...**﴾!

فهل الخشوع، والشعور القوي بوقع كلمات الله تشكيك بكتابه سبحانه لاسيما والرجل يقول أنه كان يحمل القرآن معه منذ طفولته؟ أم أن هذا الشعور القوي كان بوابة كريمة لقراءة القرآن والتأمل فيه حرفاً حرفاً ولفظاً لفظاً، بل صوتاً صوتاً وحركة حركة؟!! وهو ما فعله النيلي في عموم كتبه ومؤلفاته حول النظام القرآني والحلّ القصدي واللغة الموحّدة والطور المهدوي وغيرها؟!

لغة التشكيك هذه أو عدم القدرة على فهْم مراد الكاتب ــ على ما أظن ــ هما اللذان دفعا السيد الحسني لكتابة كتابه المذكور.

نعم، يمكن أن يكون الدافع الديني والحميّة الدينية سببان آخران، لاسيما وأن السيد المؤلف يظهر في مقدمة كتابه منافحاً

ومدافعاً عن (الإسلام والإيمان والتقوى والاستقامة والمجادلة بالحسنى واتّباع الدليل...) وما إلى ذلك. إلاّ أنّ الرجل لم يستطع بعد سطور إلاّ أن يهاجم المؤسسة الدينية أكثر مما هاجمها النيلي وكيف أنها وقفت مع (**الحوزة العلمية صامتة خاضعة خانعة دون أي ردّ علمي أخلاقي سوى ما صدَر من البعض المتضمّن للسبّ والشتم والطعن والتكفير من دون دليل ولا أثر علمي**) على حدّ تعبير السيد المرجع الذي أضاف متبرّماً من هذه الحوزة ومؤسستها الدينية قائلاً:

((فلم تعارض الحجة بالحجة والدليل بالدليل، بل اتّبع (أي هذا البعض من طلاب الحوزة ورجال المؤسسة الدينية) **أسلوب المتكبرين المعاندين الجاهلين العاجزين**)) ملْقياً باللائمة على الرموز الكبيرة فيها و ((ما يملكون من إمكانيات معنوية ومادية طائلة وهائلة ــ حسب تعبيراته ــ ولكنهم كما قال يتذرّعون بـــ ((عذر وعقبة التقية التي يتبجحون بها)) رغم أنها ((أُزيلت وأصبحت الأمور بأيديهم، ومع هذا كله ــ والكلام كله للسيد المرجع آية الله العظمى ــ **نرى الصمت والعجز وأسلوب الجاهلين**)) الكتاب ص7.

نعم، إن الرجل حاول تبرئة الحوزة والمؤسسة مما سمّاه (سوء وقُبح المؤسسة الدينية) وإن هذا (السوء والقبح) ((لا يمثّل الإسلام والمسلمين والمؤمنين بالتأكيد)) ــ حسب تعبيره ــ كما

إنه (حفظه الله) تكلّم فقط عمّا سماه (عدم تمامية) نظرية عالِم سبيط وأضاف:

((إننا لا نريد أن نسلب تلك الفكرة والنظرية عن قيمتها العلمية ولكنْ نضعها في موضعها ومقامها المناسب، فهي (مثلاً) تصلح كأطروحة محتملة في التفسير أو في اللغة كباقي الأطروحات. أما الادّعاء بأنها النظرية الوحيدة الصحيحة التامّة وغيرها باطل والعمل بغيرها شرك وكفر، فهذا ادّعاء باطل)) الكتاب ص22.

هذه هي الجزمية والجزمية المضادّة في منهجيتَيْ الرجلين النقدية، والتي نحاول التخفيف من وطأتها، ورفْعها عن كاهل المرجع الديني والمثقف الديني ليتكاملا في إطار البحث والبحث المعمق، بعيداً عن لغة الطعن والتعريض والتكفير المقيت السيء الصيت.

وحينما نأتي إلى (موارد) الرجل وتعليقاته المتعددة نراه يشقق ويعلّق كما يفهم هو من النص لا كما يفهمه القارئ أو عموم القراء، فينتزع فهماً من النص ربما لا يخطر على بال أحد، ويروح يسجّل عليه التعليقات حسب التسلسل.

ولا نريد هنا فعلاً استعراض كل ما كتبه هذا المرجع من الاعتراضات والتعليقات التي أوردها على السيد النيلي في كتابه (الفصل) ولكننا نكتفي بالإشارة إلى ما أورده الرجل في الصفحة

24 في المورد الثاني والتعليق الثاني، حيث راح معلّقاً على عبارة النيلي السابقة (لا يمكن إلاّ أن يكون هو كلام الخالق حقاً) والتساؤل الذي أعقبه وهو (إذا كان هذا الكلام هو كلام الإله حقاً الذي خلق العالَم، فلماذا لا يأبه به الخلْق ولا يمنحوه الاهتمام اللازم؟)

نعم، إنّ في هذا الكلام تطرفاً منهجياً لم نرضَ به من قِبل السيد النيلي وهو المنهج الذي حاكمناه في الفصل الأول من هذا الكتاب، إذ إن المسلمين فعلاً قد بذلوا جهدهم في فهم الكتاب، ومنحوه اهتماماً كبيراً في تفسيراتهم وبحوثهم حتى وصلوا أو وصل بعضهم إلى منتهى ما بلغوه من علم وربما لم يستطيعوا تقديم المزيد. إلاّ أن منهجية السيد المرجع جاءت هي الأخرى أكثر تطرفاً لاسيما حين اتّهم صاحبه ومن موقع التشكيك أيضاً أن هذه العبارة أو هذا الفهم ((نابع من الحالة النفسية والفكرية الوهمية التشكيكية التي يعيشها عالم سبيط والتي كشفنا عنها في تعليق سابق)) ــ على حد تعبيره ــ ولم يحمله ولو على محمل واحد من السبعين التي يُفترض أن يحمل بها المؤمن أخاه المؤمن، ويتساهل معه في كونه يحرص أكثر، أو هكذا يظهر، على التأمل في ألفاظ القرآن وحركاته وأمواج أصواته وتأثيرها فيه أكثر من غيره، حيث جعلته يشعر بالشعور الذي مرّ ذكره،

ويتحامل على المسلمين الذين لم يشعروا مثله بل لم يألوه جهداً أو يهتموا به بالمقدار الذي يريده.

فلماذا لا نشكر النيلي هنا على اهتمامه، حتى لو آخذناه على اتّهام المسلمين بأنهم (بل الخلْق) ــ حسب تعبيره ــ لم يمنحوا القرآن الاهتمام اللازم، وبذلك نكون قد أنصفْنا الرجل ودافعْنا عن المسلمين في آن واحد، بدل أن نتّهمه بالتشكيك، و (حالات الانتقاء) و (أساليب الخلط) التي انتهت بالسيد الحسني إلى اتّهام الرجل بأحد اتهامين أو كليهما إذ قال:

((وهذا إما يرجع إلى عدم فهمه وعدم تمييزه لموضوع البحث ومراده، أو يرجع إلى أساليب المغالطات والمصادرات المقصودة من أجل إيهام الآخرين وخداعهم.....)) الكتاب ص29.

سوء الفهم بين الناقد والمنقود

وهكذا، وكلّما واصلنا قراءتنا في كتاب السيد المرجع، نكتشف أن هناك مسافة شاسعة في الفهم بين الناقد والمنقود، وكأن كل واحد منهما يتحدّث بلغة غير اللغة التي يتحدث بها صاحبه.

ولا أريد هنا أن أدخل في معمعة (المعركة) بين الرجلين وأتمرغ في ترابها، وخاصة حين يقول السيد النيلي أن ((**لا ترادف ولا مشترك لفظي، ولا حذف، ولا تقديم ولا تأخير ولا زيادة ولا كناية ولا مجاز ولا استعارة ولا إيجاز ولا إطناب في النص القرآني**)) بينما يروح السيد الحسني مستشهداً بثمانية أقوال للإمام الصادق (عليه السلام) ينسف فيها جميع اللاءات المذكورة، لأن القرآن نزل – كما يقول – بـــ (إياك أعني واسمعي يا جارة) وأن (للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه بطن إلى سبعة أبطن) وأن العياش نقل عن جابر أنه سأل الإمام الصادق عن شيء من تفسير القرآن فأجابه جوابين متناقضين مبرراً ذلك بقوله: ((أن للقرآن بطناً (هذه المرة) وللبطن بطناً وظهراً وللظهر ظهر)) إلى أن يقول: ((يا جابر وليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن)) الكتاب ص106.

وإذا توقفنا عند العبارة الأخيرة ومغزاها لا بدّ أن نقول: أين يقف السيدان في معركتهما التفسيرية منها (أي من هذه العبارة؟)، وهل يستطيع أحدهما منع الآخر من الإتكاء عليها، أم تراهما يقفان هنا على أرضٍ مشتركة يمكنهما الانطلاق منها إلى قولة أخرى شهيرة لأمير المؤمنين عليه السلام يقول فيها: ((إن القرآن حمّال وجوه)) و((وما من آية إلاّ ولها أربعة معان)) ؟ وبالتالي هل يحق للنيلي أن يتجاهل هذه الأقوال، ثم هل يحق للحسني أن يلوم النيلي على تأكيده بأن لا أحد يستطيع تأويل القرآن عدا (خالقه)، وهل من حقه (أي من حق النيلي) أن يزعم أن هناك قيمة حركية فيزيائية للأصوات، يمكن للمتخصّصين أن يغوصوا في نظامها التعاقبي وما ينتج من مقاصد لا يستطيع منكرها إنكارها إلاّ إذا أثبت العكس؟!

ثم إذا كانت (عقول الرجال) أبعد شيء عن تفسير القرآن، فكيف امتلأت الدنيا من تفاسير يضرب بعضها بعضاً، ويقاطع بعضها بعضاً وبشكل لا يصدّقه العقل أحياناً.

ولعلّ من أغرب ما قرأته شخصياً في هذه الغرابة هو ترجمة أحدهم للآية الكريمة ﴿**فإذا فرغتَ فانصب**﴾ تعني ((يا محمد إذا فرغت من العبادة والدعاء و.... فنصّبْ علياً خليفةً على المسلمين)) وكأن الرجل لم يفرّق بين النصب الذي هو التعب والعناء، والتنصيب الذي هو التعيين!!! (راجع ترجمة

مؤسسة أنصاريان للمصحف المقدس، قم – إيران، طبعة سنة..... ترجمة سورة (الإنشراح).

أقول: كيف يجد المتلقي نفسه في هذه الغبرة من التفسيرات؟ وأين يجد السيدان الحسيني والنيلي نفسيهما من هذه المقولة، أو قل أيهما أقرب إلى الصحة؟ من يزعم أن لا ترادف ولا حذف ولا تقديم ولا تأخير ولا... ولا...؟ أم من يزعم أن الرجال قادرين على التفسير وفيهم مَن عقله يقول في تأويله للـــ (الذبابة) في _آية الذبابة) أنها علي بن أبي طالب و(ما فوقها) هو رسول الله !! (راجع تفسير القمي لهذه الآية). والآخر الذي يقول أن (التين والزيتون) في الآية الكريمة ﴿**والتين والزيتون**﴾ هما الحسن والحسين؟!! وما إلى ذلك مما لم يسمع به أحد ولا يخطر على قلب بشر. (راجع كتابنا: **الغلو والتطرف إلى أين؟**).

وفي نفس السياق، وتحديداً في الفصل الثاني من الكتاب تستمر المنهجية المتطرفة والمشككة هي المتحكمة في نقد المرجع الأعلى وطريقته وأسلوب طرحه. ففيما ينبري السيد النيلي في قطعياته وجزمياته التي أخذناها عليه في نقدنا له، يستمر المرجع متصيداً لعبارة من هنا وجملة من هناك لكي يدين صاحبه ويشكك في دينه وإيمانه ومعتقداته.

مثال على ذلك، تعليقه على الفقرة التي أوردها السيد النيلي في مقدمة كتاب (الطور المهدوي) والتي قال فيها: ((إنه أول

كتاب من نوعه في تأريخ الأديان والفكر البشري.... وخاصة أنه يقوم بهذه التطبيقات (ويقصد تطبيقات الحل القصدي للغة) في أكثر المواضيع خطورة من الناحية الفكرية وأكثرها أهمية لبني البشر)).

حول هذه الفقرة، راح السيد الحسني يُسجل تعليقاته ويحمّل الكاتب ما لم يقصده ولم يفكر به.

ففي تعليقه الأول قال:

((هذا تصريح وإقرار من عالم سبيط بأنه خالف الناس جميعاً حتى الأنبياء والمرسلين وخاتمهم المصطفى وآله الطاهرين)) الكتاب ص109. في وقت كان بإمكان السيد المرجع أن يستوعب الرجل ويأخذه على أنه كان يقصد أن كتابه جديد من نوعه، وهو كذلك، لأنّ ما طُرح فيه من تطبيقات للنصوص الدينية المقدسة التي انتقاها من القرآن الكريم وراح يناقشها وفْق الحل القصدي الذي يتبناه فعلاً هو كتاب جديد في طرحه وفريد في مناقشته، ولعله الأول فعلاً في تأريخ الأديان. ولا علاقة لذلك بالأنبياء والمرسلين وخاتمهم المصطفى الذين لم نعرف أن أحداً منهم تحدّث عن حلّ قصدي أو تعاقبات صوتية أو منهج لفظي عدا ما أورده النيلي من أمور عامة حول الاعتباط ربما كان الأنبياء أشاروا إليها في مضمون كلامهم لا بالنصّ وإنما بالفكرة والتلميح والإشارة وهم – كما هو معلوم – يكلّمون الناس على قدر عقولهم، أو إنهم مأمورون بذلك كما أكد الحسني مرات ومرات في كتابه المذكور.

ولم يكتف الحسني بهذا الإتهام للرجل بل راح يسجّل عليه سبعة ملاحظات في تعليقه الثاني، كان انتزعها تمحّلاً وتعسفاً من تفسير النيلي لكلمة (بشر) واختلافها عن كلمة (الإنسان) حسب فهمه ونظريته ومما لا مجال لشرحه الآن، وكيف أن الباري تعالى استخدم كلمة الإنسان عند الذم، فما استخدم كلمة البشر عند المدح والثناء.

نعم، اقتنص الناقد كلمة (البشر) هذه وراح يقول مرة أخرى: ((إن عالم سبيط النيلي يتصور ويعتقد علوّ وترقيّ فكره حتى على الأنبياء والمرسلين والمعصومين وخاتمهم قائم آل محمد (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين))) ليضعه في خانة الكافرين والمارقين، وينزل عليه لعنة الله والناس والملائكة أجمعين فيما الرجل غافل و(ميت) ولم يكن يقصد هذا المعنى لا من قريب ولا من بعيد، بل أن إيمانه بالأنبياء والمرسلين وخاصةً خاتمهم وفي مجمل نظريته وعلى امتداد كتبه، لم تشُبْها شائبة، بل أنه اعتبر النبي محمد (ص) أكمل البشر، وأنه هو لا غيره الذي (نفخ الله فيه من روحه) فسوّاه أكمل الكائنات، وهو الذي أمر إبليس بالسجود له مع الملائكة، وهو غير السجود الأول للإنسان حيث عصى فيه إبليس ربه وقال خلقتَه من طين وخلقتني من نار. وفي ذلك تفاصيل وتفاصيل يمكن مراجعتها في كتاب النيلي المعروف: **(أصل الخلق وأمر السجود)**.

الصحيح بين النصّ والرجال

يعترف السيد الحسني بأن الاختلاف في التفسيرات القرآنية ناشئ من الاختلاف في النصوص النبوية التفسيرية نتيجة كذب الكاذبين وأعداء الدين والخطأ والنسيان والغفلة – حسب تعبيراته–.

((ويزداد احتمال وقوع الاختلاف في التفسير كلما بعدت الفترة الزمنية عن عصر صدور النص من المعصومين عليهم السلام)) الكتاب ص146.

ولا يتردّد في تأكيد اعترافه هذا بقوله:

((والاختلاف بهذا المعنى موجود وواقع ولا اختلاف في وقوعه، وطريقة علاجه وفق ضوابط ونظريات وقواعد رجالية ولغوية وعرفية وأصولية)) لاحظ العبارة الأخيرة: ((وقواعد رجالية ولغوية وعرفية وأصولية)) وفاته أن هذه القواعد نفسها وقع حولها وفيها الاختلاف، فيروح يسأل النيلي بدل أن يسأل نفسه قائلاً:

((فما هو الحلّ إذن يا عالم سبيط؟! ماذا تفعل دون الرجوع إلى علم الرجال وعلم الأصول لعلاج ذلك الاختلاف والتعارض بين الروايات؟!)) الكتاب ص147.

النيلي من جانبه قالها في نظريته بجرأة ووضوح، مؤكداً أن النص القرآني وحده كفيل بحلّ جميع الخلافات، فمادام الحديث الشريف قد تعرّض هو الآخر للتحريف وإن النبي (ص) حلّ هذا الإشكال بقولٍ متّفقٍ عليه من الجميع مفاده: ((ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته، وما جاءكم عني بخلاف كتاب الله فلم أقله)) فإن المشكلة محلولة ولا تحتاج إلى تعقيد. وما دام المسلمون جميعاً يعرفون أن النصّ وصف نفسه بأن (مبين) أو (آيات بينات) أو (مفصلات) و(لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) فلا يمكن أن يكون المبين بذاته مصدراً للاختلاف، والحق المفصل مصدراً للتنازع والاحتراب إلاّ في حالة واحدة وهي أنّ المتعاملين معه بالصفة التي ذكرها، فيهم ريب (وزيغ وشقاق وكفر وبغي) وهي ألفاظ اقترنت في أكثر من سبع آيات لوصف المختلفين فيه – كما أحصاها النيلي في كتبه –.

الراسخون في العلم مرة أخرى

وهنا أثار السيد الحسني إشكالية أخرى يرفضها منهج النيلي طبعاً. هذه الإشكالية هي إشكالية الاختلافات الطويلة العريضة التي فصّلها في (المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ.... وبعضها يرجع إلى النسخ والنقل – حسب تعبيره – وما يحتفّها (ويقصد يحفّها) من تلف وإتلاف وضياع وتضييع، وبعضها يرجع إلى ظروف التقية وإلى أساليب الكلام والحوار اللغوية العرفية الشاملة للتخصيص والتقييد والقرائن المتصلة والمنفصلة والقرائن المقامية والمقالية، وبعضها – والكلام كله للحسني – راجع إلى الواضعين الكاذبين المفترين من سلاطين ووعاظهم وأتباعهم)) الكتاب ص148.

وهذا ما زاد في الطين بلّة، وبلّة أخرى عندما راح السيد الحسني يكرر موضوعه: ((الظاهر والباطن وباطن الباطن وبطن البطن وظهر الظهر)) !! ولا ندري كيف يستطيع المسلم الانسلال من هذه الشبكة العنكبوتية المقامية والمقالية، وكيف لا يضيع بين ما سماه الحسني (أساليب الحوار اللغوية العرفية)؟! وكيف إذا دخلت (التقية) و(الضياع والتضييع) و(النسخ والنقل)؟ وما هو المخرَج المشرّف من (التخصيص والتقييد) و(القرائن المتصلة والمنفصلة) وغيرها من تفصيلاته الحوزوية التي

تحتاج بحد ذاتها إلى قاموس خاص لتعريفها وتوضيحها للمتخصص فقط ناهيك عن عموم المسلمين وعوامهم، لأن كل إشكالية من هذه الإشكاليات تفتح باباً يُفتح عنه ألف باب، ويُفتح عن كل باب ألف ألف باب. هذه الأبواب لا يمكن غلقها بالتأكيد إلا بالرجوع إلى الكتاب المقدس، ولكن بعيداً عن التأويلات والتأويلات المضادة التي لا يعلمها إلاّ الله، وليس الراسخين في العلم الذين ليس لديهم ألا أن يقولوا آمنا بالله، كما جاء نصّ الآية الشريفة التي فهمها النيلي فهماً خاصاً وفهمها الحسني فهماً آخر هي الأخرى، وكل ذلك بسبب حرف العطف (و) الذي لم يأتِ به النصّ وبالتالي لم يعطف مُنزل النص (الراسخون في العلم) على اسمه المقدس كما فهم (الراسخون في العلم) ذلك، وحاولوا إيصاله إلى الناس على امتداد قرون.

واحدة بواحدة

وهكذا وكما دأب السيد النيلي مهاجماً المؤسسات الدينية والثقافية دون استثناء. ولم يخطر بباله عالِم ورع هنا، أو مثقف غيور هناك، دأب السيد الحسني على مهاجمته هو الآخر بنفس اللغة ونفس الأسلوب.

((وهذا بالتأكيد – يقول الحسني – يفسر ويكشف الجانب النفسي والذهني المضطرب الاعتباطي المريض عند عالم سبيط)) الكتاب ص154.

جاء هذا النقد طبعاً بسبب تحامل السيد النيلي على المؤسستين الثقافية والدينية حيث كتب الأخير قائلاً:

((..... وإذا كان هذا التحرك الواسع يشير إلى نشاط فكري أو محاولات للمؤسسة الثقافية للكشف عن مكامن الخطأ والوهم، فإن المؤسسة الدينية قد أصمّت أذنيها (لاحظ) كأن الأمر لا يعنيها وكأنها لم تكن المسؤول الأول عن مبادئ علم اللغة التي وضعها الجرجاني والرازي، وكأنها لا تقوم بالفعل بتفسير النصّ القرآني عن طريق (الكلمة معناها)، والجمل منفصلة عن بعضها البعض، وكأنها ليست معنية بالتناقض الذي ظهر في النص بسبب المبدأ اللغوي الذي وضعته المؤسسة قبل ألف سنة)).

وتعليقي هنا ليس مع الأفكار والاستدلالات عن السيدين الجليلين وإنما على اللغة التي يستخدمانها ضد خصميهما،

وخاصة ما قرأته هنا عن ((النفسية المريضة، وصمّ الأذن)) وغيرهما من الكلمات الجارحة التي نتمنى على نقادنا تحاشيها وعدم استخدامها أو تداولها أثناء الاختلافات.

وهكذا لغة التعميم والإطلاق، التي تستفز بالتأكيد من يضع نفسه في الاستثناء، أو يرى نفسه هكذا، فيما يحشره الناقدان الكريمان مع القاعدة، وبالتالي يجد نفسه مضطراً للدفاع عن نفسه فيروح هو الآخر، وتحت وطأة الغضب والانفعال، يرفع هراوته أو فأسه ليشج بها رأس خصمه، يرده الآخر عليها بضربة سيف أو طعنة خنجر حتى تصل الأمور إلى استخدام المسدس والكاتم، ثم المفخخات والعبوات، وبعدها الحرب النووية التي يهدد الأقوياء باستخدامها في اللحظة الأخيرة، كما استعملوها فعلاً، لتنبري السماء معاقبة الجميع ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾. أي أنه تعالى ربما يهلكهم حتى لو كانوا صالحين، ولكنه سبحانه أبى أن يهلكهم وهم مصلحون، والمسافة شاسعة كما هو معلوم بين (الصالحين والمصلحين) كما هي شاسعة بين (القرى) و(وأهل القرى) التي فصّلها النيلي أجمل تفصيل في متابعته اللفظية للنصوص القرآنية وكشف الفرق بينهما في الاستخدام القرآني، وهو ما يرونه قابلاً للنقد والتحليل، وليس للشتيمة والتخوين، أو للتشكيك، والتسقيط والتسقيط المضاد والعياذ بالله !!

السيد الحسني في (المورد الثاني والثلاثون) .. محاججة ظريفة

نعمْ، وجدتُ السيد الحسني متألماً جداً ومحاججاً فعلاً في هذا المورد من كتابه. ولو كان استمر في مثل هذه المحاججة لكُنّا وصلنا معه إلى نقطة مشتركة في مقارعة النيلي ولغته الموحدة التي لم يفهمها السيد الحسني ولم نفهمها نحن ولم يفهمها أحد من أتباعه – حسب اطلاعنا – وربما لم يكن هو نفسه قد فهمهما بالشكل الذي يتمناه !!

ومع ذلك كان السيد الحسني حتى في هذه المحاججة الموضوعية العلمية متبرماً ساخطاً يصرخ بصوتٍ عالٍ أحياناً ويتفكّه أحياناً أخرى، ويسخر لأنه وجد نفسه أمام طلاسم وألغاز لم يستطع فهمها أو قل لم يستطع النيلي إيصالها إليه.

فعن حرف الـ (دال) مثلاً أو صوت الـ (دال) أو لفظ الـ (دال) سمّه ما شئت، وضمن تعريفاته للأصوات ومعانيها يقول النيلي ((**أنه اندفاع الحركة بتدبير مقصود إلى جهة محدّدة وإلى أبعد مدى....**)) فراح يتماهى مع كيفية كشفه لقيمة هذا الصوت الحركية الفيزيائية وتحديد نظامه التعاقبي – حسب تعبيراته – وإجراء التجارب والتطبيقات عليه وعلى غيره من الأصوات.

أما المثل الذي جاء به في كلمة (باب) العربية، وما يقابلها بالانكليزية (door)، وكيف تحولت إلى (dvaer) بالروسية.. لم يستطع الحسني صبراً في متابعة السيد النيلي في هذا الصوت أو هذا المثال، بل أفقده الرجل صبره وراح يتندّر عليه باستخدام كلمات ساخرة مثل: ((ترهيم، وتلصيق، وتلزيق، ومهزلة)) وأضاف متهكماً طبعاً إن النيلي راح يرتّب تحليله في هذا المثال على هواه وعلى طريقة (كلب مستر جيمس والعطش والماء وعلاء وعلاقة هذا الكلب مع (زوجة ابن عم صديق علاء)) ليتمحلّ العلاقة بين كلمتي (ماء) و(علاء)، كما تمحّلها مع كلمة (door) الانكليزية هذه وكلمة (باب) العربية فوجد (أي النيلي) الرابط بينهما ضمن تعريفه (الحركي الفيزيائي لصوت الراء والدال) هو كلمة (تدور) التي تحتوي على صوتي (الدال) و(الراء) !!! فهذه (دور) وتلك (تدور) !!!

أقول: إنّ من حق السيد الحسني أن يفقد صبره هنا، ويستخدم كلمة (ترهيم أو تلزيق)، وليته (أخرّ) كلمة (مهزلة) لتصبح محاججته هذه الأجمل والأكثر طرافة في عموم كتابه، لاسيما وهو (يدور) ضاحكاً (مرهّماً) متندراً على الرابط (الوهمي) ويقارنه بقصة كلب مستر جيمس وزوجة بن عم صديق علاء الذي أصابه العطش، وقيام علاء بتقديم الماء للكلب، فصارت العلاقة اللغوية بين كلمتي (علاء) و(كلب)

استنتاجاً حركياً فيزيائياً نيلياً !! وهكذا في صوت الـــ (جيم) مثلاً في الألفاظ التي استخدمها والموجودة في كلٍّ من: ((باب الجنة، وباب الجواد، وباب الرجاء، وباب الجنوبي، وباب الحاجب))، وما كان يعوزه إلاّ أن يضيف (باب الشرجي) بدل الشرقي، وعشيرة (الجربة) لـــ (تكتمل السبحة) – كما يقول المثل العراقي – ويتم إدخال المنهج اللفظي تعاقبياً في المعنى الحركي لفكرة الباب ومشتقاتها والأصوات التي استُخدمت فيها واصطدام الاعتباط وخصمه في معمعتهما التي لا تنتهي بالتأكيد.

أما إذا استخدمنا (إبداع) السيد الحسني أو طرائفه في انتزاع العلاقة بين صوت الـــ (باء) وصوت الـــ (قاف) في لفظ (باب) ولفظ (قمر) الموجودين في كل من: (باب البقال) و(باب القائم) و(باب مغلق) و(باب مغلوق) و(باب القاضي) و(باب القائم)، ونضيف معه (باب مقفول) و(قفل الباب) لـــ (تكتمل السبحة) أيضاً وتدور الباب على القفل أو القفل في الباب لا فرق !! فلا نستطيع إلاّ أن نمزح مع أخينا الحسني ونتهم المرحوم ربما ظلماً بـــ ((الوهم والخيال والمهزلة والضحك على ذقون السذج والبسطاء)) كما قال السيد الحسني في كتابه ص178 ممتعضاً غاضباً منفعلاً.

وأقول (ربما ظلماً) هنا لأنني لا أدري إنْ كان النيلي يمتلك أجوبة على هذه الإشكالات أو لديه أسرار أخرى لا نعلمها، ونكون قد ظلمنا الرجل ونظريته ومنهجه الذي قدّم له بقوله:

وإذا كان ذلك يستلزم الإتيان ببرهان علمي وعملي فقد قدّم الحلّ (القصدي) أعظم البراهين في تأريخ اللغة حينما كشف عن القيمة الحركية الفيزيائية للأصوات وحدّد نظامها التعاقبي بما يفسّر النظام الاشتقاقي برّمته لكافة لغات العالم، وطلب من جميع المختصين إجراء التجارب والتطبيقات على جميع الألفاظ قديمها وحديثها)). ولم يكتف بذلك بل أضاف واثقاً من نفسه:

((فالحل القصدي يمتلك من الأدلّة ما يجدّد الكلمات التي نطق بها الخلق بينما لا يمتلك الحل الاعتباطي دليلاً واحداً على نظريته سواء في مؤسسته الثقافية أو الدينية)) الكتاب ص171.

ولا ندري هنا أيضاً إنْ كان الرجل قد وفّق في كتابه (اللغة الموحدة) للإدلاء بهذا الإدعاء أم لا، ومَن يا ترى فهمَ كتابه هذا أو نظريته؟! وهل كان الرجل فوق مستوى تلاميذه فلم يفهموه، كما لم يفهم النظرية النسبية لآينشتاين إلاّ القليل ؟ أم أن الرجل كان يعيش أوهاماً وخيالات وخرائط قد نظلمه إذا تسرّعنا وقلنا أن لا أحد فهمها أو حاول فهمها على الأقل لحدّ الآن.

تخريب النظام اللغوي من وجهة نظر النيلي

يقول السيد النيلي إن الإعتباط مارس دوراً سلبياً أثّر على نقاء اللغة والفلسفة والأديان، وأنه كان من (أسلحة الشرور) حسب تعبيره، لأن عملياته (التخريبية) ((طالت النصّ القرآني كما طالت نصوص العهدين.... وسارت عليها جموع المفسرين وأصحاب المعاجم ومدارس النقد، التي اعتُمدت لتخريب النظام اللغوي في أذهان التلاميذ منذ نشأتهم، بإعطائهم المفردة، والإيحاء لهم باتفاق معناها مع مرادفها ما يؤثر تأثيراً بالغاً على النضوج العقلي والفكري لهم..)) ويضيف:

((لقد تفنّن الاعتباط وهو سادر في غيه منتهى التفنّن في إعادة بناء الجملة...)) (حتى) وصل إلى الإيهام والابهام، زاعماً (أي الاعتباط) أن الإبهام ضرورة من ضرورات البلاغة ((حتى بلغت موارد الإبهام القرآني نحو السبعين نوعاً من مئات الآيات)) الكتاب ص185.

حول هذا النص علّق السيد الحسني مباشرة قائلاً:

((إنها اتهامات ودعاوى لا أساس لها من الصحة)) ولكنه أضاف بعد هذه الجملة مباشرة أيضاً: ((وقد تحدّثنا في تعليقات

سابقة عن ثبوت ووجود المُحكم والمتشابه في القرآن، والخاص والعام، والمطلق والمقيدّ، والناسخ والمنسوخ، والظاهر والباطن، وباطن الباطن....)) ويواصل بلا فاصلة:

((وتحدثنا عن المعاني (ويقصد تعدد المعاني) والحقائق الشرعية والمتشرعة – حسب تعبيره – والعرفية و..... وتحدّثنا عن التعارض في الروايات المفسرة للنصوص القرآنية... بسبب كثرة الكذابة... والتقية... والبعد الزمني، وحصول التلف، والضياع والتضييع، والخطأ أو السهو، أو النسيان في النقل أو النسخ، وغير ذلك)).

وهذا هو ما قلتُه من قَبل أن السيد الحسني يتحدث في واد والنيلي في واد آخر، والاّ ما هو الفرق بين النصين اللذين أراد الأول أن يعارض فيها الأخير؟

ألا ترى قارئي الكريم أن النصين يتطابقان تماماً في نتائجهما؟ فالنيلي يرى أن اللغة خرجت ولم يعد التلاميذ يفهمون المعنى الحقيقي للفظ وراحوا يستعينون بالمرادف و(الكلمة معناها).

والسيد الحسني يرى هو الآخر أن الخاص والعام، والمطلق والمقيد والحقائق الشرعية والمتشرعة و و و.... هي الأخرى تدافعت وتقاطعت بسبب الكذبة والتقية والنسيان التي أوردتْ تعارض الروايات وأدّتْ إلى ناسخ ومنسوخ، وظاهر وباطن،

وباطن وظاهر ومعاني متعددة للنصّ وما إلى ذلك.... وهذا هو الذي يرفضه السيد النيلي ويعترض عليه.

أما المُحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ الذي ورد نصّه في القرآن فله تعريف ومعنى غير الذي يفهمه السيد الحسني، وقد شرحه الأول بشكل مفصل في كتبه، متكئاً على فلسفة التكامل والتدرج عند مخاطبة النوع الانساني والارتقاء به نحو الطموح، وصولاً إلى إلغاء المترادفات والكنايات والمجازات والاستعارات التي يتكئ عليها (الاعتباط) فيما يرفضها (المنهج القصدي) رفضاً قاطعاً.

فعبارة (**يكتب كلماته**) مثلاً تختلف عن عبارة (**يدوّن كلماته**) وهذه تختلف عن (**يسطّر كلماته**) والأخيرة تختلف عن (**يرسم كلماته**) أو (**يحفظ كلماته**) أو (**يضع كلماته**) وهكذا، وهذا هو الذي يخرب اللغة حسب فهم النيلي ويؤثر على ارتقاء النضوج العقلي والفكري للناس، كما في المثال الذي سنأتي عليه بعد قليل.

نعم، فالجاهل المتخلف لا يرى فرقاً بين من يقول (**أحب فلانة**) والآخر الذي يقول (**احترم فلانة**) بينما الناضج الواعي يرى فرقاً كبيراً بين هذين القولين، وهكذا بين من يقول (**أنا احبّ فلانة**) وغيره الذي يقول (**أنا معجب بفلانة**) أو (**أهواها**) أو (**إني أعتز بها**) أو (**أحترمها**) أو (**أقدرها**) أو (**أودها**) أو (**مغرم بها**) مع إضافة الضمير هنا طبعاً وتقديره المهم جداً جداً

عُرفاً ولغةً واصطلاحاً ومفهوماً وفكرةً وعملاً – وكل بحسبه طبعاً – !!

هذا في معاني الألفاظ والكلمات، أما في التقديم والتأخير واللحن الصوتي فهاك المثال التالي لترى المسافة الشاسعة بين كل من الجمل التالية:

ضرب زيدٌ عمراً ضرباً مبرحاً. وهنا جملة عادية تؤكّد على الحدث فقط وهو الضرب.

زيدٌ ضرب عمراً ضرباً مبرحاً. وهنا التأكيد على زيد الضارب وليس على الحدث (الضرب).

زيدٌ ضربَ عمراً ضرباً مبرحاً. وهذه تختلف عن الثانية **من لحن قراءتها** وليس من نصها فقط وهي جواب على السؤال: (مَن ضربَ زيدٌ ؟) فيما كان سؤال الثانية: (من ضرب عمراً ؟!

زيدٌ ضرب عمراً ضرباً مبرحاً. وهذه تختلف عن الاثنين السابقتين المشابهتين لها عبر التأكيد على الضرب أي كيفية الضرب، ولا تُفهم إلاّ من لحن قرائتها أيضاً أو من تغيير السؤال بحيث يصبح (كيف ضرب زيدٌ عمراً؟) وجوابه (ضرب زيدٌ عمراً ضرباً مبرحاً.

وهذا هو ما يقصده النيلي في التقديم والتأخير الاعتباطيَيْن اللذين يرفضهما في نصّ الخالق سبحانه وهو القادر على كل شيء، فلا يُقدم ولا يؤخر إلا لسبب وجيه وليس اعتباطاً كما يقول الاعتباطيون الذين يقيسون كلام الله بكلامهم أو كلامهم

بكلام الله، فلا يفرّقون بين جملة (ولم يكن له أحدٌ كفؤاً) والآية الكريمة ﴿**ولم يكن له كفؤاً أحد**﴾ أو (وإنْ أحدٌ من المشركين استجارك) و(وإن استجارك أحد من المشركين) وأمثال ذلك.

وباختصار شديد، ولكي لا يطول بنا المقام هنا فإن السيد الحسني استنكر على النيلي ما أنكره هو نفسه، بل ساءل نفسه بنفسه من حيث لا يعلم، فالنيلي يرى أن (**موارد الإبهام القرآني السبعين**) هي نفسها التي أشار إليها الحسني في المحكم والمتشابه، والخاص والعام، والناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد الذي اختلف فيه المسلمون وابتعدوا عن حقيقة اللفظ بمقدار ابتعادهم عن اللغة. فصارت لديهم آيات القرآن الكريمة التي ذكرها النيلي في شرح (مباشرة النساء) مثلاً والتي وردت في عدة ألفاظ متشابهة فـ (**باشروهن**) مثل (**لامستم النساء**) والأخيرة مثل (**لم يمسسني بشر**)، وهذه مثل (**فلما تغشّاها**) وجميع هذه مثلها مثل: (**فاعتزلوا النساء في المحيض**) أو (**دخلتم بهن**) أو (**الرفث إلى نسائكم**) أو (**فآتوا حرثكم أنّا شئتم**).

وهكذا مما لا حصر له ولا عدّ في القرآن الكريم والتي يرى النيلي أن الكلمات: 1- **باشر** 2- **لامس** 3- **تغشّى** 4- **دخل** 5- **رفث** 6- **مسّ** 7- **أتى حرثه** 8- **اعتزل النساء**، لا تعطي معنى واحداً، فيما يرى الاعتباط أنها تعطي نفس المعنى وهو (الجماع) لا غيره. ومثلها كلمة السيف التي مرّ ذكرها والتي لها ثمان

(مرادفات) هي 1- **السيف** 2- **الحسام** 3- **البتار** 4- **الفيصل** 5- **القاطع** 6- **المهند** 7- **الأبيض** 8- **الضارب**.

وهكذا (الجواد) التي لها عشرون مرادفاً، و(الجَمل) التي لها أربعون، و**(فتى)** و**(حدث)** و**(صبي)** و**(غلام)** التي لها عشرون و و و.... وكلها تحكي عن معنى خاص ناشئ عن حركة أو فعل أو إيحاء أو فكرة كما هو معلوم.

فإذا سلّمنا بذلك فلماذا لا نتعاطف ولو قليلاً مع السيد النيلي، ونعاتب السيد الحسني على هجومه الكاسح على الأول حينما راح يخاطبه في نهاية هذا المورد قائلاً:

((يا عالم سبيط عندما تتهم وتشتم وتكفّر وتكذب وتناقض الاعتباط وأهل الاعتباط من علماء اللغة والأصول والفقه والمنطق والفلسفة والتفسير والحديث والرجال وغيرهم من أتباع أولئك من الناس أجمعين؟ أقول – والكلام للسيد الحسني طبعاً – عندما كذّبتَ أولئك واتهمتهم بالكذب والخداع والغيّ والشرّ وتدمير النص القرآني والدين، وناقضْتهم تناقضاً تاماً كما عبّرتَ خلال كلامك، فكيف صدّقت إذن بأن الذي بين يديك والذي حصلتَ عليه منهم وبواسطتهم..... القرآن، فصدّقْتهم بهذا فقط وكذّبتهم في كل شيء؟؟؟)).

ثم يضع ثلاث علامات استفهام بعد هذا النصّ، وما درى أن الجواب جاهز عند النيلي، وهو قدرته سبحانه على حفظ

كتابه رغم أنف الرجال والكذابين والناسخين والحفظة وكتّاب الوحي وحتى النيلي نفسه وصاحبه والناس أجمعين. وبالتالي يعود جواب السؤال أن هذا الكتاب هو الذي دلّ على النبي، وليس النبي هو الذي دلّ على الكتاب – كما يفهم النيلي طبعاً – وهذا هو الذي دفع بالنيلي أن يجعل من الكتاب ونصّه فقط إماماً للمسلمين وقائداً لهم، ومَن عَمل بالعكس استحق أن يسميه ما يسميه وأدخله في زمرة أهل الخداع والغيّ والشرك والشر والكفر والكذب ودفعه في الوقت نفسه إلى منهجيته المتطرفة وغير المعهودة بين الناس.

وربما يمكنني القول هنا إن السيد الحسني (حفظه الله) سار في الكثير من تعليقاته وموارده على نفس المنهج المتطرف الذي سار عليه صاحبه، فلم يشأ التسامح أو استخدام المفردات غير الجارحة والتي كانت وستبقى هي السبب في كل النزاعات الاجتماعية والعقائدية، فلو كان هناك تعريفاً محدداً لكلمة (كفر) وتمييزها عن كلمة (شرك) مثلاً وتمييز هاتين الكلمتين عن (إلحاد)و(جحود) و(عصيان) و(فسوق) و(زندقة) و(مروق) لكان بإمكان بني الانسان أن يرتقوا في سلم النضوج والوعي الذي حُرموا من ارتقائه بسبب ما سماه النيلي (التخريب اللغوي) الذي سبّبه الاعتباط بطبيعة الحال.

المؤسف أن النيلي نفسه، وحين يضيق به المقام يروح مستخدماً أقسى العبارات أو الكلمات بحق خصومه، ولا نريد أن نذكّر باللغة التي استخدمها مع الكاتب أحمد الكاتب حينما ردّ على كتاب الأخير المعروف حول الإمامة والشورى وولاية الفقيه والموسوم بـــ **(تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه)** بكتاب كامل سماه **(الردّ على الناصب أحمد الكاتب)**، ولم يترك في هذا الكتاب شتيمة إلاّ وأطلقها على الرجل وبشكل غير مألوف على الإطلاق من قبيل: عميل وغبي وأبله مأجور وبليد وما إلى ذلك. – ما سناتي عليه بعد قليل –.

وهذه هي المنهجية نفسها التي استخدمها ضده خصومه، ولعلّ السيد الحسني كان هيّناً قياساً بآخرين، فاكتفى باتّهام الرجل في عقله وأنه يعيش في **(حالة نفسية وفكرية سقيمة)** حسب تعبيره. والحمد لله لم يصل إلى ما وصل إليه غيره حين اتّهموه بأنه تربية صدام وحزب البعث، وأنه خائن وعميل، وأنه مترف ومدلل ومجنّد للسوفيت والماسونية والصهيونية العالمية.

ردّ الشيخ اليعقوبي

قرأتُ ردّ سماحة الشيخ اليعقوبي المختصر على السيد النيلي، وبالأحرى على كتابه (اللغة الموحدة) فوجدته ردّاً علمياً هادئاً، ويمكن وضْعه في إطار المنهجية النقدية النموذجية التي نفضّل الترويج لها ووضعها في دائرة النقد الموضوعي المعتدل.

أؤكّد أننا نحترم الرجل على هدوئه واعتداله، ونتعاطف معه في إشادته بقوة تفكير النيلي وعمقه ــ حسب تعبيره ــ ونؤيده في رفضه لإعجاب الأخير بنفسه واستخفافه بالآخرين والذي أسميناه (النرجسية الزائدة). إلا أن سماحة الشيخ ــ وعلى طريقة الفقهاء في التعامل مع المفردات الفقهية ــ لم يدرك عجز الناس في التمييز بين كلمتي (التديّن) و (الورع) مثلاً فاتّهمَه لذلك بقلّة الورع رغم اعترافه بتدينه، وهو شيء جميل من ناقد متدين لا يبخس الناس أشياءهم، ولكن معظم الناس لا يفرقون بين التدين والورع مع الأسف.

ولا نريد هنا مناقشة الملاحظات السبعة والعشرين التي أوردها سماحة الشيخ اليعقوبي في ردّه الموجز هذا لأن بحثنا هو غير ذلك، وعلى مريدي السيد النيلي وتلامذته توضيح ما استشكل على الناس فهمه وهو ما أشار إليه الشيخ اليعقوبي في آخر جملة له في تعليقه حين قال:

سأكون مقدراً لصاحب النظرية ومكبراً لفكره لو استطاع رفع هذه الإشكالات والنقوض ويقصد الإشكالات على اللغة الموحدة لا غير.

ولعل أهم هذه الإشكالات والنقوض هو قول الشيخ **(أن مفاد أية نظرية سيكون ساقطاً لو لم يفهمها أحد إلا صاحبها)**.

نعم، ربما يأتي في قابل السنين والأيام مَن ينهض بهذه المهمة وسيكون الشيخ اليعقوبي وغيره من الشاكرين الممتنين لهذا العمل الكبير!! لاسيما في الردّ على تعليق سماحة الشيخ رقم 13 في كون اختلاف ألسنة الناس ولغاتهم من ألطاف الله فيما يرى آخرون أن هذا الاختلاف يسبب التناحر والصراع، أو قل أن الكثير من مشاعر التناحر والتنافر بين الشعوب هي نتيجة لهذا الاختلاف والحواجز اللغوية، وعدم القدرة على فهم أحدهم الآخر.

آمل أن يكون المتصدي للردّ على ردّ الشيخ اليعقوبي هذا هو غير ذاك الذي قرأته مخطوطاً قبل أن يُطبع، وأن يَحذف صاحبه عبارات التحامل والخطابة الحماسية التي شابت ذلك الرد وخاصة في النص الذي أسجّله بحرفه ونصه والذي راح فيه مخاطباً الشيخ اليعقوبي وجماعته قائلاً:

((إن هذا الطرح الذي يتكرر في أدبياتكم هو الدليل الأكبر على إفلاسكم يا منظري الإسلام، فالأروقة..... والأصح أنها لا تتجاوز أطراف أنوفكم)).

مثل هذه العبارات الإنفعالية هي التي نتمنى على مثقفينا وعلمائنا تجاوزها والعودة إلى النصوص الهادئة التي لا تترك خدوشاً في المشاعر حتى لو لم تنل الشيء المطلوب.

نعم، إذا تكسّرت المشاعر تكسّرت القلوب و:

إنّ القلوب إذا تكسّر ودها مثل الزجاجة كسرها لا يُجبر

أما إذا تكسّرت العقول فبالإمكان ترميمها، وإن الله تعالى لا ينظر إلى العقول بقدر ما ينظر إلى القلوب و ﴿**إنها لا تعمى الأبصار ولكنْ تعمى القلوب التي في الصدور**﴾ وفي الآخرة ــ كما يقول سبحانه وتعالى ــ لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم. ولم يقل جلّ وعلا بعقل سليم أو دين سليم أو معتقد سليم.

النيلي وردّه على أحمد الكاتب النموذج الأكثر تطرّفاً في المنهجية النقدية

يمكنني القول في ختام هذا الاستعراض أن أسوأ نموذج للمنهجية النقدية المتطرفة هو ما دوّنه السيد النيلي في ردّه على كتاب **(تطور الفكر الشيعي)** للكاتب أحمد الكاتب، وكيف راح النيلي يستخدم من الجمل والعبارات ما لم أكن أصدّق أنها له، لاسيما وأنه رحمه الله رحل إلى ربّه، وراحت دور النشر تَحذف ما تريد أو تضيف ما تريد إلى كُتبه بعد رحيله.

ولعلي لا أجد عزاءً في مثل هذه الردود إلا كونها صادرة عن الشخصية العراقية المعروفة بحدّتها وتشنّجها وخروجها على المألوف أثناء الجدل أو الحوار.

كما لا أريد الوقوف طويلاً مع ردّ السيد النيلي هذا لأنه خارج إطار بحثنا اللفظي أولاً، ولأنه ردٌّ من النيلي على غيره وليس العكس.

لقد وجدتُ في هذا الردّ – مع الأسف – ما يُخرج النيلي تماماً عن العلمية والموضوعية وحب الهداية للآخرين لاسيما حين راح يستخدم أشد الألفاظ وأكثرها قسوة وتجريحاً بحق الكاتب (أحمد الكاتب) بحيث لم يترك شتيمة شُتم هو بها نفسه

إلا واستخدمها ضد الأخير، وكأن المسألة: كما تدين تُدان، ومن غربل الناس نخلوه !

ولذلك فإني لم أشأ قراءة كتابه هذا إلى النهاية لأن العنوان الذي اختاره له وهو (**الشهاب الثاقب في الردّ على الناصب أحمد الكاتب**) يدلّ عليه.

كما إني لستُ بصدد الدفاع عمّا أورده أحمد الكاتب في فهمه لتطور الفكر الشيعي وتحفّظه على الإمامة والنصّ (أي النصّ على الإمام علي) ووجود الإمام الثاني عشر عند الشيعة الإثني عشرية، ولكني أردتُ فقط وفقط محاججة المنهجية التي استخدمها المرحوم النيلي في هجومه على صاحبه حيث لم يتوفر على مفردة من مفردات الشتائم إلا وقذفه بها -كما قلت-.

وما دمتُ أريد الاستدلال على هذه المنهجية غير السليمة فإني لن أتعدّى ما أورده النيلي في الصفحات الخمسين الأولى من كتابه المذكور، وكيف أنه استخدم عبارتَيْ (**المفتري الكذاب**)، و(**الأفاك الكذوب**) عدة مرات في هذه الصفحات، واصفاً الكاتب بأنه ((**من أكذب الخَلق وأكثرهم إمعاناً في الافتراء والتزوير**)) الكتاب ص15.

ولم يكتف بذلك بل وصفه بعد عدة صفحات بأنه: ((**الأفاك الكذوب الملحد الذي اتّخذ من الدين وسيلة لهدم الركن الأساسي فيه**)) ص17 ويقصد الإمامة طبعاً.

وأكثر من ذلك إنه لم يتورّع أن يخاطبه في الصفحة 24 قائلاً: ((**إذن فأنت داعية غبيّ**)) ويضيف منفعلاً: ((**أجب أيها الأفاك الكذوب**)) ثم يهاجمه بلا فاصلة وبكلمات جارحة جداً من قبيل ((**مغفّل**)) و ((**أبله**)) و ((**غبي**)) و ((**لا أحسبه يصلي منذ أربعين سنة**)) !! وإنه من ((**الناكثين والمارقين**)) وهكذا حتى يفقد أعصابه ويروح قائلاً: ((**تباً لك أيها الكاتب الغبي.....**)) !!

ولا يكتفي بذلك بل يذهب إلى لعْن أجداده الذين وصفهم بأنهم ((**خانعين في أبواب السلاطين ينتظرون فوائض الأكالين....**)) مضيفاً:

((لكنْ هيهات يمرّ ذلك بسلام عليك، فانتظر فادحة تحلّ بك أو فاقرة تـــقصمُ ظهرك تتبعها رادفة تنقلك إلى النار قريباً وقريباً جداً)) الكاتب ص34.

كل ذلك قبل أن يتهمه بأنه عميل ومأجور وإنّ كتابه ((**مدفوع الأجر مقدماً**)) وأن علياً عليه السلام سيلعنه لأنه عدو لدود لـــ (قرين القرآن)، إلى أن يقول: ((فأبشر أيها المنافق بفاقرة الظهر بعد أن حاربتَ علياً ولي الله المبرّأ من الدنس وبعتَ نفسك للشيطان بثمن بخس...)) ص44 و ((**إنك لا ترى ولا تبصر... بلى أنت لا ترى قط حتى تدخل قعر جهنم.. لأنك مثل أسلافك وأشياعك.. فيا لكم من أغبياء وحمقى**)) ص47.

وهكذا مما يحزّ في نفوسنا ونتألم له ومنه ومما لا ينبغي المرور عليه مرور الكرام، ومع من؟ مع كاتبٍ ومفكر مبدع كالسيد النيلي الذي كان بإمكانه أن يستخدم ألفاظاً أخرى ويحاجج بطريقة أخرى تضعه في صفّ الناقدين المبدعين الذين لا تنقصهم الكلمات ولا يعييهم العثور على المفردات. نعم، المفردات الهادئة الرزينة التي لا تَـخرج عن حدود اللياقة والموضوعية والأدب، ناهيك عما تتركه من أثر إيجابي على القارئ والكاتب معاً، الأمر الذي يمكن أن يفتح لها كوة نحو الهداية أو بصيص نور نحو الحق، بدل الأسلوب الاستفزازي الذي لا يزيد المقابل إلا إصراراً وعناداً إن لم نقل مكابرة وامتعاضاً واعتزازاً بالإثم.

أكتفي بهذا القدر من الاستدلال على المنهجية النقدية المتطّرفة بمصاديقها وشخوصها وكما وردتْ بالحرف والنص في هذا الكتاب النموذج، وأدعو مرة أخرى إلى السعي للوصول إلى ما وصل إليه الناقدون المبدعون الذين يترفّعون عن استخدام الكلمات الخادشة ويجعلوا أنفسهم مكان خصومهم، وينزعوا الغلّ من قلوبهم لكي يخلعوه من قلوب غيرهم.

نعم، لقد استكثر النيلي (رحمه الله) تفسير بعض المفسرين لكلمات: (أنعام) و (حمار) و (كلب) التي وصف بها بعض الناس في القرآن الكريم، وأخرجها إخراجاً رائعاً لكي لا يجعل

منها وصفاً للانسان، لا سيما وان مثل هذه الكلمات لم توجّه إلى أسماء بعينها رغم أنها قصدتْهم بالتأكيد. وكل ذلك لكي تدع لهم مجالاً للتوبة أو العودة والإنابة، وهذا هو ما يريده الناقد الهادف أو الكاتب المسؤول الذي يسعى أن يبقى رسالياً هادياً، ويتحاشا أن يضع نفسه داعياً رسولياً، أو شرطياً عقائدياً يخشاه الناس ويتّقون شره.

أقول: إن أقلّ ما يُحدثه الأسلوب الخادش في الآخر هو الامتعاض إن لم نقل الاحتقان، والمحتقن لا يناقَش بالتأكيد، إذْ إذ لا يمكن الوصول معه إلى نتائج مُرضية إلا بعد إزالة احتقانه، وإمتصاص غضبه، فما بالك إذا كان يتصوّر أنه محقّ ويشعر أنه مظلوم محتسب !!!

اللهم اجعلنا ممن يكظمون غيضهم قربةً إليك، وممن يردّدون قولك سبحانك ويؤمنون به:

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

صدق الله العلي العظيم، والحمد لله رب العالمين

ردّ أحمد الكاتب على النيلي
النموذج الأمثل

لم يبقَ لدي في خاتمة البحث إلاّ أن أرفق نموذجاً طيباً للمنهجية النقدية الهادفة قبال المنهجية النقدية المتطرفة.

هذا النموذج ورَدَ بقلم الأستاذ الباحث أحمد الكاتب في ردّه على المرحوم السيد النيلي بعدما أصدر الأخير كتاباً كاملاً ردّ فيه على كتاب الأول المعروف **(تطور الفكر السياسي الشيعي)** – مر ذكره –.

وأقول نموذجاً طيباً لأنه خلا من السباب والشتائم عدا عبارة (يصمّ أذنيه) التي وضعها بين عبارتَي (يغمض عينيه) و(يغلق عقله) حيث طفحت المنهجية العراقية هنا أيضاً ولم تستطع مع الشتائم صبرا.

أترك هذا النموذج كما وردّ بحرفه ونصّه وبلا تعليق لعلّنا نتعلم من خلاله أسلوب البحث العلمي وأدب الحوار، ونتحاشى الحدّة والخشونة، ولو باستخدام جملة (أغلق عينيه وأذنيه) المعبّرة بدل (أصمّ) الخادشة الحارقة.

فإلى نص هذا الرد العلمي الرصين للأستاذ أحمد الكاتب:

مع المهندس عالم سبيط النيلي في كتابه:

(الشهاب الثاقب للمحتج بكتاب الله في الرد على الناصب أحمد الكاتب)

التنظير للمنهج الحشوي، والتحريف بدعوى الإصلاح

ترددت كثيرا في الرد على النيلي، الذي درس الهندسة في موسكو، ولم يسبق له أن درس في الحوزة العلمية، ولكنه يختزن ثقافة شيعية شعبية تقليدية، وقد هاله إقبال الناس في العراق على كتابي عند صدوره، فانبرى للرد على الكتاب، ولم يجد ما يرد به سوى مفردات الجدل الشعبي الذي لا يستند على أي منهج علمي، ولا أقول أكثر من ذلك لأني أربا بنفسي النزول الى مستوى المفردات السوقية والغوغائية التي استخدمها في كتابه. واذا كان المكتوب يقرأ من عنوانه، فإن اتهام أحمد الكاتب بالنصب والعداء لأهل البيت، بهذه السهولة والجرأة، يؤكد طبيعة الردود التي قدمها المؤلف.

ولولا وجود أشخاص، أو لجنة، أو تيار يروج الى الكاتب النيلي، وكتبه المشابهة وادعاؤهم برد النيلي على الكاتب، لما تشجعت في الرد عليه، لأن كتابه يرد على نفسه بنفسه لكثرة ما فيه من تناقض وحشوية وسطحية ورفض مباديء البحث العلمي التي لم يدرسها بالطبع في موسكو الشيوعية.

ولأنه كان يعتقد بأن الإمامة من الله وتثبت عن طريق النص، فقد اعتقد بأنها جزء أساس من الدين، ولذا فقد وجد في قراءتي المخالفة لنظريته والتي تقول بأن الشورى هي نظرية أهل البيت السياسية تناقضا كبيرا مع الصورة التقليدية التي يحملها عن التشيع، وانطلق من هنا ليرد على كتابي (تطور الفكر السياسي الشيعي) حتى قبل أن يقرأ الكتاب. حيث يقول: ((**من أوَّلَ سطورٍ قرأتها وأنا أدركُ كلَّ الكشوفاتِ اللاحقةِ للكاتبِ، وبدأتُ الردَّ ولمْ أقرأ سوى سبع صفحاتٍ.. لِماذَا؟ لأنني أعلمُ إلى أيِّ موضعٍ يريدُ الوصولَ. وأقسِمُ باللهِ وملائكته وكتبه ورسلِهِ أنّي علمتُ من أوَّلِ خمسةِ أسطرٍ أنَّه في الطريق لإنْكَارِ الوصيّةِ والإمامةِ، وأنَّ هذه كلَّها مقدّماتٌ نفسيَّةٌ لهذا الهدف!!**)).

ولكنه لم يتوقف عند تطور الفكر الشيعي عبر التاريخ، ولم يتأمل في التحدّيات التي واجهته، ولم يبحث بالطبع موضوع وجود الأمام الثاني عشر أو عدم وجوده، واعتبر ذلك أمرا مسلّما لا يحتاج الى نقاش، ولم يتوقف إلا عند النظريات المختلفة في تفسير سبب الغيبة، وهو أمر متأخر على مسألة بحث وجود الإمام الغائب وولادته.

ولما كان بحْث هكذا أمور تأريخية وعقائدية يحتاج الى عدّة علمية يفتقدها النيلي، فقد اختصر الطريق برفض البحث

العلمي من الأساس، والإعلان عن كفره بعلم الرجال، والتمسك بدلا من ذلك بالمنهج الاخباري الفج الذي ينظر الى الروايات نظرة ذوقية ومزاجية. ولم يبحث ولم يجب عن كثير من الأسئلة التي طرحتُها في الكتاب حول مصير نظرية الامامة ومصداقها الخارجي، أو هوية الامام الثاني عشر، واعتبر ذلك محاولة استخباراتية لكشف ستر الامام الغائب!!!

ان مشكلة النيلي الكبرى تكمن في أنه يعتقد أن ما ورثه من آبائه وأجداده هو عين الحق والصواب، رغم أن الكثير منه قائم على أحاديث ضعيفة أو مختلقة، أو تأويلات تعسفية للقرآن الكريم، وبدلا من أن يفترض في البداية احتمال الخطأ أو يمارس الشك المنهجي الذي يقود الى البحث العلمي، ثم التوصل الى اليقين، فإنه يتشبث بما ورثه حرفيا دون نظر أو تفكير، ولا يسمح حتى للعلماء باحترام الآراء الأخرى، أو توفير أي قدر من الحرية في البحث والتفكير، فهو يقول مثلا((وَمَا نريدُ أنْ نقولَهُ في هَذا الكتابِ هُوَ أنَّ الناسَ دأبوا علَى الجدالِ حَوْلَ الحَقِّ والباطِلِ والصحيحِ والخاطئ، وتَمَادُوا في ذَلِكَ إلى درجةِ أنَّ عُلَمَاءَ الدِّينِ أصبَحوا يأخذونَ بفكرةِ احترامِ الآراءِ جميعاً ولو فيما بينهم، ويبرِّرون الاجتهادَ ويزعمون أنَّ الاختلافَ في الدِّينِ رحمَةٌ وأنَّهُ ضرورةٌ لإغناءِ الفكرِ والبحثِ.

لكنَّ هُنَاكَ فَرَقاً بَيْنَ البَحْثِ عَن الحَقِّ والباطِلِ وبَيْنَ الاختلافِ في الحَقِّ والباطِلِ هُوَ عيْنُهُ الفَرق بَيْنَ الكُفْرِ والإيمانِ. إنَّ كُلَّ الَّذينَ يبرِّرون الاختلافَ ويَسْمَحونَ بتعدُّدِ الوجوهِ في تأويلِ النصّ الإلهيِّ هُمْ ظَلَمَةٌ وكفَرَةٌ، بَلْ هُمْ أَظْلَمُ الخَلْقِ طُرّاً وإنْ لَبَسوا العمائمَ وتجلببوا بجُلبابِ الدِّينِ، لأنَّهُمْ يؤمنون بِعَدَمِ وضوحِ الفَرقِ بَيْنَ الحَقّ والباطِلِ ابتداءً، ويجعلون النصَّ الإلهيَّ الَّذي جَاءَ لإزالةِ الاختلاف ــ يجعلونهُ مَصْدَراً للاختلافِ)).

وهذا ما يثير التعجب والشفقة حول مدى انغلاق النيلي وجموده الفكري وتطرفه، حينما يعتبر العلماء المجتهدين الذين يسمحون بتعدد وجهات النظر في تأويل القرآن: ((**ظلمة وكفرة بل أظلم الخلق طراً**)).

ورغم وجود تفاسير عديدة للدين ومذاهب ومدارس مختلفة في داخل الدين، مما يعني وجود الاحتمال بخطأ بعض التفاسير أو التأويلات، فإن النيلي يعتبر نقد التفسير السائد للدين، طبعا حسب وجهة نظره، محاولة لإبطال أسس الدين، ويقول:((نَرَى بوضوحٍ كافٍ أنَّ الهجماتِ الموجَّهَةِ إلى الدِّينِ السماويِّ وَعَلَى كافَّةِ المستوياتِ هِيَ هَجَمَاتٌ عَلَى التفسيرِ السائدِ للدِّينِ وَلَيْسَتْ عَلَى الدِّينِ نَفْسِهِ، وَلَكِنَّهَا تُحاولُ إبطالَ أسُسِ الدِّينِ من خلالِ التناقُضَاتِ في أقوالِ علماءِ الدِّينِ والمفسِّرين، فيحسِبُ البعضُ بَلْ أكثرُ الناسِ أنَّ الدِّينَ أصبَحَ في خَطَرٍ من هَذِهِ الهَجَمَاتِ)).

والغريب أنه يعترف بـــ ((إنَّ مَا حَصَلَ في عقائدِ المسلمينَ مُنْذُ قرونٍ طويلةٍ هُوَ انقلابٌ شاملٌ لمبادئ الدِّينِ وانعكاسٌ للمفاهيمِ بِحَيثُ أنَّ الدراسَةَ الجّادَّةَ للنصِّ القرآنيِّ ومحاولةَ فهْمِهِ مُستَقِلاً عَن آراءِ الرِّجَالِ تبيِّنُ بوضوحٍ كافٍ أنَّ الدِّينَ الَّذي بَيْنَ يدينا اليوم هُوَ نقيضُ الدِّينِ الَّذي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، ولِذَلِكَ يتمكَّنُ دعاةُ الإلحادِ والكُفْرِ من توجيهِ الضرباتِ القويَّةِ إلى هَذا الدِّينِ المزيَّفِ فيحسِبُ الناسُ أنَّ الدِّين في خَطَرٍ. ولَكنَّ الحقيقةَ كَمَا قُلْنَا مِنْ قبل أنَّ الخَطَرَ هُوَ عَلَى الباطِلِ مِنَ الباطِلِ لا غَيْرَ.!

ولَكنْ – والكلام للسيد النيلي طبعاً – يَبْقَى علينا أنْ نوضِّحَ للقارئِ الفَرَقَ بَيْنَ دِينِ اللهِ ودينِ الناسِ!، إذْ هُنَا تكْمُنُ المشكلَةُ بِكُلِّ أَبْعَادِهَا!

فإنَّ هَذا التوضيحَ يستلزِمُ إجراءَ سلسلةٍ مِنَ الأعمالِ ستَكونُ المفاجأةُ فِيْهَا عَلَى رجالِ الدِّينِ من كافَّةِ المذاهبِ أشدُّ وقعاً مِمَّا هِيَ عَلَى القارئ العادي. ومن المتوقَّعِ أنْ يَقِفَ أكثرُهُم ضِدَّ عمليةِ التصحيحِ وفي صفِّ العدوِّ إذا أحسُّوا بالخَطَرِ الدَّاهمِ عَلَى مسلَّماتِهِم ومبادِئِهِم ــ وسوف يَحْسبونَ أنَّ الخَطَرَ في التصحيحِ أعظَمُ عليهم من الخَطَرِ الآتي من هجماتِ الملاحِدَةِ والكفّارِ.

ذَلِكَ لأنَّنا لَو قُلْنَا أنَّ مَا تَنْتَقِدُونَهُ هُوَ آراءُ الرِّجَالِ وأعمالُ الرِّجَالِ، وبيَّنا فِيهِ حقيقةَ الدِّينِ ظَهَرَ مِنْ خلالِ ذَلِكَ كُفْرُ هَؤُلاءِ الرِّجَالِ وانحرافُهُم عَن الدِّينِ، وهُم أسماءٌ لامعَةٌ مشهورَةٌ في

الأمَّةِ ومعروفَةٌ بالـــ (التقوى والصلاح)، بَلْ أسماءٌ مقَدَّسَةٌ جِدًّا. ذَلِكَ لأنَّ الدِّينَ الَّذي يؤمِنُ بِهِ الناسُ اليوم هُوَ في الواقِعِ أسماءُ رجالٍ، فَلا يَفْصِلونَ ولا يُفَرِّقونَ بَيْنَ الدِّينِ وَمَا يسمّى بـــرجالِ الدِّين)).

إذن فإن النيلي يعترف بوجود تحريف وتأويلات باطلة في الدين، بل وانقلاب شامل لمفاهيم الدين الصحيحة، ويدعي العمل من أجل إصلاح ذلك التحريف، أو يعطي لنفسه الحق بالقيام بذلك، ولكنه يرفض أن يقوم الآخرون بهذا الدور، كما يرفض انتهاج الطرق العلمية الصحيحة للتصحيح. وأولها الشك بما ورثه من آبائه وأجداده، وعدم اعتبار كل ذلك من الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولو كان النيلي قد اتبع المنهج العلمي في البحث والتحقيق والتفكير، لربما كان قد وصل الى نتائج طيبة، ولكنه مع الأسف أضاع الطريق، وأغلق على نفسه الباب رافضا أدنى اختلاف.

ولست أدري كيف سارع النيلي الى اعتبار نقد نظرية الامامة، أو وجود الامام الثاني عشر، بمثابة إنكار النبوة والرسالة، مع ان نظرية الامامة هي واحدة من النظريات المختلف عليها داخل المذهب الشيعي الذي ضم أكثر من سبعين فرقة.

ولست أدري كيف توصل الى أن ((كتاب (تَطَوُّر الفكرِ الشيعيِّ من الشُّورَى إلى ولايةِ الفقيه) يمثِّلُ أبرزَ عملٍ من أعمالِ التحريفِ والزَّيف)). مع أن الكاتب يدعو الى العودة الى القرآن الكريم، وسنة النبي ﷺ ومذهب أهل البيت، ورفض أقوال الرجال الذين دسوا أقوالهم في تراث أهل البيت.

والفرق الرئيس بين النيلي والكاتب، هو أن الأول يرفض البحث والتحقيق، والكاتب يدعو الى ذلك قبل التمسك بأية عقيدة. وكنا ننتظر من الأستاذ النيلي أن يقوم بمناقشة الروايات المتناقضة والضعيفة التي ذكرها الكاتب، وبنى على ضوئها القول بأسطورية وجود الامام الثاني عشر، وبطلان نظرية الامامة. وأن يقدم بدلا منها ما يعتقد أنها روايات صحيحة تثبت أولاً ولادة (محمد بن الحسن العسكري) حتى يسوغ القول بوجود إثني عشر شخصا هم أئمة معينون من قبل الله، ضمن ما يُعرف بنظرية الامامة الاثني عشرية. إذ لا يجوز أن يقفز عن بحث موضوع ولادة ووجود الامام الثاني عشر، ليبحث فقط في بعض الروايات التي تتحدث عن نظرية الامامة الالهية، من دون تقديم مصداق خارجي لها، وكذلك من دون بحث سند أية رواية.

وهذا هو جوهر الخلاف بين النيلي والكاتب، والمفرق الرئيس بين الحقائق والأساطير، والحق والباطل. وبدلا من أن

يختار النيلي المنهج العلمي والطبيعي في الاجتهاد والبحث والتحقيق ليصل الى الحقيقة، اختار أن يغمض عينيه ويصم أذنيه ويغلق عقله، ويطلق للسانه العنان في كيل السباب والشتائم والاتهامات والافتراءات على الآخرين.

انه يدّعي بأنه يبني عقيدة الامامة على القرآن والسنة، فيقول:((كَذَبَ كُلُّ قَائِلٍ لأيِّ فِكْرَةٍ فِيْهَا حُكْمٌ عَقَائِديٌّ أو تاريخِيٌّ أو مُسْتَقْبَلِيٌّ أو شَرْعيٌّ أو فِقْهيٌّ أو بَلاغِيٌّ أو كَلامِيٌّ أو فَلْسَفيٌّ لا يَدِلُّ عَلَيْهِ القُرْآنُ بوضوحٍ تامٍّ كوضوحِ المُعَادَلاتِ الرِّيَاضيَّةِ الَّتي لا تَقْبَلُ خَطَئَاً مَا)). ولكنه لا يأتي بآية واحدة صريحة تثبت الامامة لأهل البيت، وانما يعتمد التأويل التعسفي واللف والدوران. كما يفعل مع هذه الآية التي تتحدث عن خلافة النبي داود عليه السلام: (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُم عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ). سورة ص 26 ليستنتج منها إمامة الأئمة من أهل البيت، مما يدل على أن النيلي يخلط بين خلافة الأنبياء وبين الامامة السياسية المطلوبة في المجتمعات الاسلامية الى يوم القيامة، رغم ختم الله للنبوة بنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويحاول ان يقيس على هذه الآية قياسا باطلا، ويأولها تأويلا تعسفيا حتى يستخرج منها ما يريد.

وفي مقابل ذلك يقوم النيلي بتأويل آية الشورى: (وأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُم)، فيقول:((أَنْتُم تَقُولُونَ أنَّ (الأَمْرَ) شُورَى لِقَولِهِ تَعَالَى (وأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُم) ثُمَّ تَقُولُونَ: إنَّ (أُولي الأَمْرِ) بِهَذِهِ الشُّورَى.. فَكَيفَ يَكونُ ولِيُّ الأمْرِ بَيْنَهُم بالشُّورَى؟ يااللْفَضِيحَةِ المَنْطِقِيَّةِ!!أَفَهَـذَا مَا تَعلَّمْتِمُوهُ مِنْ أرسطو طاليس؟!! وَمَعَ ذَلكَ فإنَّ (أمْرَهُم) هُوَ غَيْرُ (الأمْرِ) قَطْعَاً ــ الأمْرُ المُعَرَّفُ بأَلِّ التَعْرِيفِ.أَمْ هُنَا فَقَط تَنْسُونَ أصولَكُم والفَرَقَ بَيْنَ المُعَرَّفِ بالإضَافَةِ والمُعَرَّفِ بأَلِفْ لام العَهْدِ؟)).

ومن الواضح ان هذا التفسير للقرآن ليس واضحا كوضوح المعادلات الرياضية المتفق عليها، وإنما فيه قدر كبير من التأويل والقلب واللف والدوران.

وبعد أن يتلاعب بالقرآن الكريم كما يشاء، يأتي النيلي للأحاديث فيعطي لنفسه الحق بأن يغرف منها ما يشاء، ويرفض أن يستوقفه أحد أو أن يسائله أحد عن صحة تلك الأحاديث، فيشن هجوما عنيفا على علمي الأصول والرجال، اللذين تطورا لدى المدرسة الأصولية منذ مئات السنين، ويصر على العودة الى طريقة الاخباريين الحشوية، فيقول:

((الكاتِبُ سيقولُ: هَذا الحَديثُ ضعيف! نعم.. صحيحٌ فَإنَّهُ ضعيفٌ جِدَّاً، وكلُّ الأحاديثِ ضعيفةٌ جِدَّاً!!.

.. أَلَم أَقُلْ لك لا تكلّمني بالرجالِ فإنّي لا أحتجُّ بالرجالِ!. والذي يحتجُّ بالرجالِ ضالٌّ مضلٌّ.. أَمْ تَحْسبُ أنَّ الشيعةَ هُمْ الأصوليون؟ ألا تدري أنَّ سهْمَكَ قَدْ عَادَ إلى نحرك؟. ذَلِكَ لأنَّ عِلْمَ الرِّجَالِ والحُكْمَ عَلَى النصوصِ من خلالِهِ لَيْسَ من أعمالِ شيعةِ عليٍّ!. بَلْ هُوَ من أفكارِ وأعمالِ أهلِ الشُّورَى! وانتقالُهُ إلى الطائفةِ الَّتي تسمَّى اصطلاحاً بـــ (الشيعة) لا علاقةَ لَهُ بالموضوعِ الَّذي بيننا الآنَ)). ويضيف:((إنَّ العقائدَ لا تَثْبتُ بِأَقْوَالِ وأحاديثَ تبعاً لوثاقَةِ الرِّجَالِ أو عَدَمِ وثاقَتِهم، لأنَّ الرِّجَال يختلفونَ أَيْضاً في هَذِهِ الوثاقةِ ! إنَّ العَمَلَ لَهُوَ بالمعكوسِ.. حَتَّى لَو تَبَنَّى طريقَتَكَ كُلُّ مَنْ تسمِّيهم شيعةً فَلا حُجَّةَ في ذَلِكَ. فَمَا أَدْرَاكَ أنْ يَكُونَ أَكْثَرُ طائفَةِ الشيعَةِ عَلَى ضَلالٍ في هَذا وَمَعَ ذَلِكَ تَبْقَى الإمامَةُ هِيَ الدِّينَ؟.!!

ويحَكَ إنَّ الحقَّ لا يُعْرَفُ بالرِّجالِ.. أعرفْ الحقَّ تَعْرِفْ أهلَهُ، وأعرِفْ البَاطِلَ تَعْرِفُ أهلَه.

وَهَذِهِ الكَلِمَةُ مشهورةٌ ولَكنَّ العَمَلَ الجاريَ ضدُّها تَمَاماً، والقانونُ الأصوليُّ والكلاميُّ عكْسُها ولا غرابَةَ!! فَكَمْ مِنْ آيَةٍ في القرآنِ مشهورةٍ والعَمَلُ عَكْسُهَا تَمَاماً؟!!

إنَّ مَنْ يُثْبتُ الإمامَةَ بعليٍّ والأئمَّةِ لَهُوَ كافِرٌ!

وَأَنْتَ تفْهَمُ وكُلُّ الناسِ يفهمُونَ أنَّ الإمامَةَ والعِصْمَةَ أُثْبِتَتْ عَن طريقِ الأئمَّةِ.!!

فَكَيفَ تعرِفُ الحقيقيَّ من المزَيَّفِ إذا كُنْتَ تَرْجَعُ لأقوالِ الرِّجَالِ مَرَّةً أُخْرَى؟

إذا كُنْتَ لا تَعْلَمُ أنَّ عِلْمَ الرِّجَالِ وُضِعَ أَصْلاً لجَعْلِ المُزَيَّفِ عَلَى قَدَمِ المساواةِ مَعَ الحقيقيِّ فاعْلَمْ هَذا الآن.! وإذا كُنْتَ تَبْحَثُ عَن الحَقِّ بِمَا هُوَ حقّ فَمَا شأْنُكَ بِمَا يقولُهُ النَّاسُ قَلُّوا أو كَثَروا؟ ...بَلْ أعرِفْ الحَقَّ أولاً، وعندئذ سَتَعْلَمُ موقعَ كُلِّ واحدٍ من الناسِ مِنَ الحَقِّ)).

ثم يؤكد:((أن عِلْمُ الرِّجَالِ لا قيمة لَهُ بالمرَّةِ، لأنَّ الأَمْرَ النبويَّ هُوَ في عَرْضِ الحديثِ عَلَى القُرآنِ. وَإنَّمَا خالفوهُ لأنَّهُمْ لَو فَعَلَوا لاضطرُّوا إلى تحديدِ معانيَ القرآنِ، إذْ لا يُعقَلُ أنْ يُحْكَمَ بِهِ عَلَى الحديثِ مَعَ الاختلافِ في التفسيرِ. وهم لا يريدونَ الحصولَ عَلَى التفسيرِ الصحيحِ، بَلْ يريدونَ المَنْعَ من ظهورِ التفسيرِ الحَقِّ للقرآنِ، لأنَّهُ سيكشِفُ المؤامرَةَ كلَّها عَلَى قرينِهِ (العترة).!

فافْهَمْ ذَلِكَ فَهَذَا هُوَ السببُ الوحيدُ والأوَّلُ والأخيرُ لظهورِ عِلْمِ الرِّجَال والتضعيفِ للأحاديثِ.. وخاصَّةً أخبار أهلِ البيتِ عليهم السَّلام لأنَّها جميعاً أَخْبَارُ آحادٍ بِسَبَبِ الاضطهاد!

وَهَذا الكاتبُ... يستخدِمُ هَذِهِ الطرائقَ عينَهَا لتضعيفِ الأحاديثِ الَّتي لا تعجبُهُ وتقويَةَ الَّتي يُريدُها.

وعملُهُ هَذا وإنْ فَعَلَهُ أقوامٌ من طائفةِ الشيعةِ فَإنَّهُ لا يَمِتُ إلى الدِّينِ بِصلَةٍ، وَهُوَ خلافُ الأوامِرِ النبويَّةِ والمنطقِ والعقْلِ! فَلا حُجَّةَ فِيهِ، إذْ أَكْثَرُ السُنَّةِ والشيعَةِ خلافُهُ ذَلِكَ لأنَّ الرِّجَالَ هُمْ الَّذينَ يحْكمونَ عَلَى وثاقَةِ الرِّجَالِ فيبقى الاختلافُ قائماً بَيْنَ الرِّجَالِ!

والطريقُ الوحيدُ لتصحيحِ الأحاديثِ هُوَ قانونٌ لا يأتيه الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يديهِ ولا مِنْ خلْفِهِ.

ولَيْسَ هُنَاكَ سِوَى القرآن أو الإمام المنصوص عَلَيْهِ من الرسولِ. أمّا الإمامُ فَقَتَلُوهُ بالسيفِ، وَأمَّا القرآنُ فَقَتَلُوه بِتَعَدُّدِ التأويلِ وابتداعِ المرادَفاتِ والمجازِ لتوجيهِ النصوصِ بحَسَبِ الشهيَّةِ !.

وجَعَلوا مكانَهُما أنفسَهُم من خلالِ عِلمِ الرِّجَالِ فَحلُّوا مَحَلَّ الثقلين كليهما. فلعنَةُ اللهِ عَلَى الظالمين. ثُمَّ وَضَعُوا شروطاً قاسيَّةً جِدًّا للرجالِ، قاسيَةً ضِدَّ الخصوم لا ضِدَّ الانتحالِ والوَضْعِ، فَمَرَّتْ مِنْهَا الموضوعاتُ ولَمْ تَمُرْ مِنْهَا الصِحَاحُ، لأنَّها تَتَحَدَّثُ عَن كُلّ مَا يُدَمِّرُ المؤامرةَ وأصحابَها مشمولين كأسانيدٍ بشروطِ الاستبعادِ.

وَمَعَ ذَلِكَ فقَدْ تَحَامَلوا أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ مذكورٌ في الشروطِ ومَنَعَوا من تسجيلِ الأحاديثِ بأقسى مِمَّا هُوَ مشروطٌ، فانبرى بَعْضٌ من بَقِيَ عندهم ضَمِيرٌ حيٌّ واستَدْرَكوا عَلَى الأحاديثِ

المارَّةِ بِنَفسِ الشروطِ. وكَأنَّ لسانَ حالِهِم يقولُ: اظلموا ولكنْ بالقانونِ الموضوعِ عِنْدكُم للظُلْمِ!

وَعلَى هَذا فالكاتبُ يستخدِمُ الأسلوبَ الانتقائيَّ للحديثِ. فللمرْءِ أنْ يقولَ لَهُ: إنَّ كُلَّ مَا تَستَشْهِدُ بِهِ موضوعٌ ومزيَّفٌ!. فيبقى كُلُّ واحِدٍ علَى مَا أَرَاد)).

ويقول:((لِذَلِكَ قُلْنَا مِرَاراً أنَّ تحليلَ النصِّ هُوَ الدَّليلُ الوحيدُ علَى صِحَّةِ صدورِهِ مِنَ المَعْصُومِ أو مِنْ سِواه، فَلا يمكنُ تضعيفُ نصٍّ أو تقويتُهُ تَبْعَاً لوثاقَةِ الرِّجَالِ. فَكَمْ مِنْ موثوقٍ وَهْوَ عِنْدَ اللهِ فاسِقٌ؟ وكَمْ مِنْ شرّيرٍ وَهْوَ عِنْدَ اللهِ مِنَ الأخيارِ؟. بَلْ كَمْ مِنْ شرّيرٍ يَجْعَلُ اللهُ علَى لِسَانِهِ الحَقَّ؟ وكَمْ مِنْ عَالِمٍ نِحريرٍ نَسَى اللَّفْظَ فَيَنْقُل المَعْنَى بِأَلفَاظِهِ هُوَ فَيَقَعُ في التباسٍ ويُوقِعُ الخَلْقَ مَعَه.

وقَدْ اعْتَمَدَ الكاتِبُ علَى تَضْعيفِ الرُّوَاةِ فَقَط للخلاصِ مِنَ النِّصوصِ الدَّامِغَةِ لباطِلِهِ وكأنَّنَا مُغَفَّلونَ لا نَدْرِي أنَّ عِلْمَ الرِّجَالِ ظَهَرَ أَصْلاً مِنْ جِهَةِ أعْدَاءِ الدِّينِ وخصومِ الأئمَّةِ الأطْهَارِ وإنْ عَمَلَ بِهِ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ طَوَائِفِ الشِّيْعَةِ)).

وهنا ينسى النيلي أن الكاتب لا يحاول إثبات نظرية معينة، وإنما يشكك بما تقدّمه النظرية الامامية الاثني عشرية من أدلة، وبالتالي فاذا لم تصح الأحاديث والقصص والروايات التي تبني عليها مقولتها، فإن العودة الى نقطة الصفر تعني عدم ثبوت

نظرية الامامة، وليس بقاء كل طرف على ما عنده. وإذا لم تثبت نظرية الإمامة، أو فرضية وجود الامام الثاني عشر، فإن الأمر يعود بصورة آلية الى نظرية الشورى التي لا يوجد غيرها في الساحة.

ولست أعرف ما هو سبب تهجمه على علماء الأصول والمجتهدين من الامامية، مع انهم لم يستخدموا قواعدهم النقدية الأصولية في قراءة أحاديث الامامة والاثني عشرية ووجود الامام الثاني عشر، وانما ساروا على الطريقة الأخبارية القديمة، ولذلك لم ينقضوها. في حين أن مهاجمة الأصوليين لن ينفع الاخباريين شيئا، إذ ان القواعد الأصولية والرجالية هي قواعد فرضت نفسها على الشيعة لتصفية الركام الهائل من الخرافات والأساطير التي تسربت الى تراث أهل البيت، وكانت سببا لحدوث انحرافات عقائدية كبرى في صفوفهم، وليس التزامهم بها تقليدا للسنة الذين سبقوهم إليها بقرن أو قرنين عندما واجهوا حالة مشابهة من الروايات المختلقة التي بلغت حوالي نصف مليون رواية، مما دفع المحققين منهم الى تصفيتها واختيار بضعة آلاف رواية صحيحة منها. ولكن الأستاذ النيلي يحاول من خلال ضربه للمنهج الأصولي والرجالي، وتبني المنهج الأخباري الحشوي، ان يحافظ على نظرياته من الانهيار. فيهاجم الشيعة وعلماء الأصول قبل أن يهاجم الكاتب.

كان يمكنه الاجتهاد في علم الرجال وتضعيف من يريد او توثيق من يريد، ولكنه رفض علم الرجال كله وخشي من الاقتراب منه، وادّعى أنه قادر على معرفة النص الصحيح الصادر عن المعصوم من غيره، بواسطة التحليل. ولم يشرح لنا كيفية ممارسة التحليل وأسسه وقواعده، مع الأسف الشديد. وربما كان يقصد الاشارة الى دراسة المتن في نقد الأحاديث، وهي عملية يمكن أن تساعد على معرفة النص، خاصة أثناء التعرف على عناصر التضاد والمخالفة مع القرآن الكريم أو العلم أو العقل، مما يؤدي الى إسقاط الحديث، ولكن عملية التحليل لا تستطيع أن توثق رواية وتثبت صدورها عن المعصوم إلا بعد تأكد صدورها عبر رجال ثقاة معروفين وسند متصل، وأما إذا تخلل الرواية رجال مجهولون أو ضعاف، أو انقطع سندها فإن الرواية تفقد قيمتها الشرعية ولا يمكن الاعتماد عليها. وهذه مسائل بديهية يعتمدها كل الناس من كل الاديان والمذاهب في عملية التثبت من الأخبار، ولكن الأستاذ النيلي يحاول أن يتجاوز الشروط العلمية البديهية في النفي والإثبات، ويحتج بعملية التحليل للروايات، وهو باب واسع يمكن أن يدخل الانسان عبره ما يشاء، وينسب ما يشاء الى من يريد.

والطريف أنه رغم كل ذلك يدّعي أنه يتبع منهجا علميا في البحث، ويهاجم الآخرين على عدم اتباعهم للمنهج العلمي ويقول

عني ((انه يأتي بالقصصِ لإثباتِ بطلانِ القضايا الدينيةِ أو يحشر الثوابتَ الواردةَ في السنَّةِ المقدَّسةِ من جُملةِ القضايا المشكوكِ فِيْهَا.. وأينما تصفَّحتَ في الكتابِ فَإِنَّكَ تجدُ نفسَ الطريقةِ الَّتي لا تمتُ إلى البحثِ العلمي بأيَّةِ صلةٍ تُذكرُ)).

ان عملية التحريف التي حدثت في الدين، والتي يعترف النيلي بوجودها حتى داخل المذهب الشيعي، لم تتم إلا عبر المناهج غير العلمية وغير الشرعية في أخذ الدين، والقيام بتأويل القرآن الكريم بصورة تعسفية، إضافة الى اختلاق الروايات والأساطير ونسبتها الى الاسلام أو الى مذهب أهل البيت، ولا يمكن التخلص من التحريف والأساطير الا بتنقيتها عبر منخل علم الرجال. وهو بالضبط ما يرفضه النيلي.

إذن فهو يرفع شعار الإصلاح، في الوقت الذي يسير في طريق التحريف. ولا يزيد الطين الا بلة.

الفهرس

مقدمة الناشر 5
مقدمة الكاتب.. 7
في صلب المنهج اللفظي للنيلي.............................. 11
المنهج اللفظي واللغة الموحدة 14
زكية أم زاكية... 22
الحمأ المسنون.. 29
هجوم النيلي على النحويين والمفسرين 33
ساتر ومستور، ومات ويموت 35
ومثال آخر ﴿وقضى ربك ألاّ عبدوا إلاّ إياه...﴾...............36
لا يأتون بمثله 39
العودة إلى المنهجية 51
الجزمية والقطعية عند النيلي.. تطرّف أم إعتقاد؟... 53
ومع الخليفة الثاني كذلك................................59
ولافتة أخرى وضعها تحت عنوان: نصائح عمر للخمّارين.......... 64
الكلام المباشر أكثر غرابة.................................. 69
سمّ النبي... 74
الهجوم على رجال الدين...................................76
التفاتة أخرى (من مات ولم يعرف إمام زمانه)............ 80

النيلي والأصوليون والبحث الأصولي..... 83
الحيرة في فهْم السيد النيلي..... 96
ويستمر النيلي في محاكمة الأصوليين..... 100
ونعود إلى النيلي ومفهوم الانتظار..... 107
ويستمر النيلي حائراً 109
خلاصة الهجمة على الأصوليين..... 115
اللغة الموحّدة والحلّ القصدي للغة..... 120
استظهارات صوتية..... 130
أهم ما أراد الكتاب توضيحه..... 150
سبب ضياع المسلمين..... 152
أين نصر الله في سورة النصر؟..... 155
المنهجية النقدية بين النيلي ومناوئيه مع كتاب (الردّ على النيلي) للشيخ الركابي..... 161
اعتراف: النيلي عقلية وقّادة..... 166
مع ردّ سماحة المرجع الأعلى السيد الحسني: الفصل في رحلة الكشف..... 172
سوء الفهم بين الناقد والمنقود..... 179
الصحيح بين النصّ والرجال..... 184
الراسخون في العلم مرة أخرى..... 186
واحدة بواحدة..... 188

السيد الحسني في (المورد الثاني والثلاثون).. محاججة ظريفة ..190
تخريب النظام اللغوي من وجهة نظر النيلي..... 196
ردّ الشيخ اليعقوبي 202
النيلي وردّه على أحمد الكـــاتب النمـــوذج الأكثر تطرّفاً في المنهجية النقدية 205
ردّ أحمد الكاتب على النيلي النموذج الأمثل..... 209

موجز عن السيرة الذاتية للباحث

- ❖ خريج لغة إنكليزية – جامعة بغداد
- ❖ عمل مدرّساً في العراق وخارج العراق سنوات عديدة
- ❖ مارس العمل الصحفي والإعلامي في المهجر وداخل العراق، وكان مديراً لإحدى الإذاعات المعارضة لنظام صدام عدة سنوات
- ❖ كاتب وباحث، صدر له أكثر من عشرين كتاباً، كما قام بترجمة عدة كتب عن اللغة الانكليزية إلى العربية وبالعكس، أهم كتبه ما يلي:

- ⛵ الديمقراطية والدين – إشكالية الحكم الديني / دار الانتشار العربي – بيروت
- ⛵ الحريات والحقوق – الواقع والادّعاء – عدة طبعات في إيران والعراق ولبنان / دار الشؤون الثقافية – بغداد، دار الكتب العراقية – بيروت
- ⛵ الاختلاف والنقد ثم الإصلاح / طبع في إيران ولبنان دار الكتب العراقية – بيروت
- ⛵ التقصير الكبير بين الصلاح والإصلاح / عدة طبعات في العراق ولبنان
- ⛵ سب الصحابة والفتنة الطائفية / دار الكتب العراقية – بيروت / دار مصر مرتضى – بغداد
- ⛵ الصدر الثاني – الشاهد والشهيد / عدة طبعات في إيران والعراق
- ⛵ الإسلام والتعددية الدينية – ترجمة عن الانكليزية / طبع في إيران ولندن

- التشييع بين السياسة والتأريخ والواقع / بغداد – دار الجواهري / دار الكتب العراقية
- أزمة العقل الشيعي – مقالات ممنوعة / دار الانتشار العربي – بيروت
- الإنبعاث الشيعي – ترجمة عن الإنكليزية / دار مصر مرتضى ودار الكتب العراقية
- مقالات عكس التيار / دار الكتب العراقية – بيروت
- الدين والسياسة – إشكالية الحق والمصلحة / دار الانتشار العربي – بيروت
- موجز تاريخ العراق السياسي الحديث – دار الكتب العراقية
- نزار قباني بين الحب والجنس والقضية – رؤية نقدية

❖ نشرت له المئات من المقالات والبحوث في العديد من المجلات والجرائد العراقية والعربية وبأسماء مختلفة

تأتي قراءة الباحث والناقد الأستاذ مختار الأسدي لمنهجية المفكّر المبدع عالم سبيط النيلي ومناوئيه، أطروحة جديدة في النقد البنّاء الذي يَدخل إلى أعماق النصوص ويُحاكم قائليها بموضوعية وهدوء بعيداً عن الانحياز العقدي والأحكام المسبقة.

فلقد حاول الرجل أن ينأى بنفسه بعيداً عن الخطاب الحماسي واللغة المتطرّفة اللذين يَستدرجان الباحث في الكثير من الأحيان ويضعانه في خانة الخطيب التعبوي الغاضب، بدل أن يُبقي نفسه في دائرة الموجّه الفكري المسؤول.

ومن هنا جاءت هذه الأطروحة رصينة هادئة تستحق القراءة والتأمل والمتابعة.

نعم، لقد أشاد الأستاذ الأسدي ببعض ما كتبه مناوئو النيلي في نقدهم لصاحبهم، ولكنه لم يفُته أن يسجّل عليهم تحاملهم على الرجل واتّهامهم له بشكل غير منصف. وهو نفس ما فعله مع النيلي حيث أثنى على إبداعه وأفكاره الجديدة ولكنْ لم يفُته أن يسجّل عليه انفعالاته الغاضبة، وانجراره إلى دوائر المسبق المذهبي والاندياح الأيديولوجي.

دار ومكتبة البصائر
للطباعة والنشر والتوزيع
لبنان صفير -مجاور ملعب الراية
هاتف: 01547698 - 03210986
Email:. iraqsms@gmail.com

مكتبة العين
بغداد - شارع المتنبي
009647700728810